رجال ومعارك

تأليف
نبوية محمود



رجال و معارك



الناشر : **دار الأمل**

العنوان : ٨ شارع عبد العزيز حامد ـ أول الملك فيصل ـ الهرم

تليفون : ٥٨٦٠٨٩٢

رقم الإيداع : ٩٧/٨٤٧٧

الترقيم الدولي : 977 - 5823 - 12 - 9

طبع : **مطابع زمزم**

العنوان : العاشر من رمضان

جمع وإخراج : **أرمس للكمبيوتر**

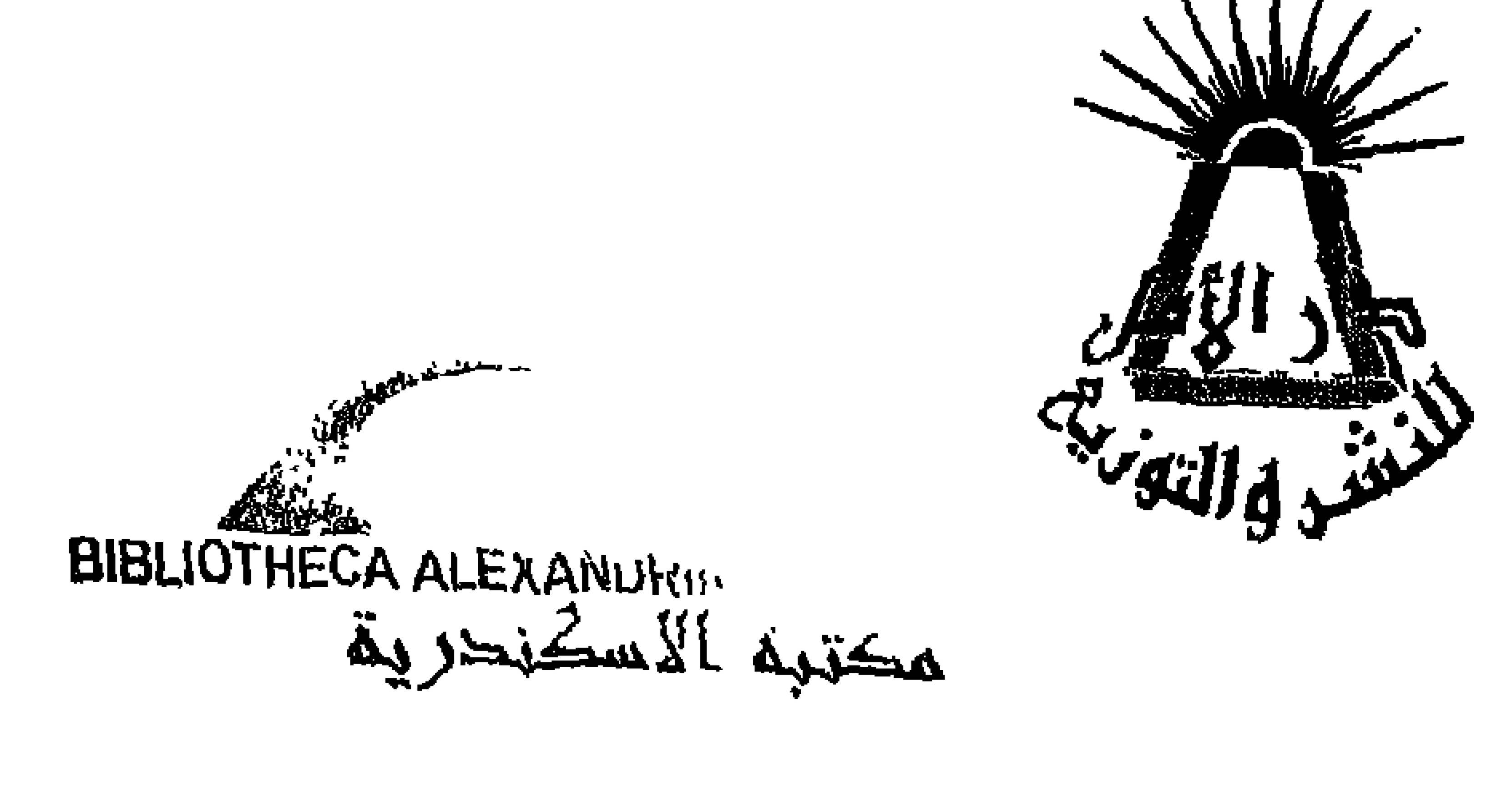
العنوان : ٣٢ ش على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة ـ لاظوغلى

تليفون ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الأولى **١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م**

رجال ومعارك

تأليف
نبوية محمود



تقديم

يحدثنا التـاريخ عن معارك قادها رجالنا فـسطروا بحروف من نور قصص البطولة ، ورفعوا ألوية النصر عالية خفاقة فى كل مكان .

ويطيب لنا يا أبنـائى أن تقرءوا فى سـجل المجـد والفـخار قـصص البطولات لتكون لكم هُديًا ونورًا تستضيئون به فى حياتكم ..

إن كل معركة من تلك المعارك التى خاضـها الأبطال ذات سمة خاصة وتكنيك فريد يدل على ذكاء المحارب العـربى ، ويؤكد على بطولته وحبه الشديد للنصر أو الاسـتشهاد .. إنه يقـدم كل رخيص وغالٍ من أجل أن تظل رايات الإسلام خفاقة وأعلام النصر مرفرفة ..

والله الموفق من قبل ومن بعد .

المؤلف

١ ـ حمزة بن عبد المطلب
أسد الله وأسد رسوله

مولد حمزة ونشأته :

فى عـام الفيل وُلِدَ بطلُنا « حـمزة بن عـبدِ المطلب » وكـان له شـرف الإخاء برسولِ الله ﷺ من الرضاعـة فقد أرضعـتهما امرأة واحـدةٌ هى « ثويبة » ثم انتقل الرسول ﷺ إلى « حليمة السعدية » فأرضعته .

ثم أكْرَمَ الله حمزةَ بصداقة الرسول ﷺ منذ الطفولة ، وصَحبَ حمزةُ رسولَ الله ﷺ يرقبُ فيه ـ عن كـثب ـ سُموَ أخلاقـه التى فاقت كل معاصـريه ولقد عُرِفَ محمد ﷺ بين قَوْمه بالصَّادق الأَمين .

كان حـمزةُ يَتمـتعُ بكَلَ الصفـات الجميلةِ من رجـولة وشجـاعة وفروسـية ، وكيف لا يكون ذلك وهو ابن عبد المطلب سيد قريشٍ ؟ وقدًّ أهله كلٌ ذلك ليحتلّ مكاناً بين زعمـاء مكة وسادات قريـش . كما دُرِّبَ « حمـزة » على كل البطولات مثل الفروسية والقنصِ والصيدِ .

إسلام حمزة

عندما نزل الوحى على رسـول الله ﷺ قام يدعو إلى دين الله وكـانت الدعوة فى أول الأمر سراً . فآمن بـه وصـدقه عـدد قليل منهـم « على بن أبى طالـب » و « أبو بكر الصديق » و « عثمـان بن عـفـان و « بلال بن رباح » وغيرهم ولكنهم كانوا يخـافون قريشاً . وكانوا يجـتمعون سـراً فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . حتى تسربَّتْ أخبارهم إلى قريشٍ .

ولأولِ مرةٍ في مجالس قريش سَمِعَ (حمزةُ) سادةَ قريشٍ يتحدَّثون عن الرسول بحقد وغيظ .

وبَدَأَ « حمزةً » يسألُ نَفْسَه ما الذى يَجْعَلُ سادَةَ قريشٍ يحملونَ على الدين الجديد تلك الحملة العنيفة ؟

وما حقيقة هذا الدين ؟ ومكث « حمزةُ » فى بيته أياماً لا يستقرُ على قرارٍ

وقال فى نفسه : سأَقْصِدُ اليومَ دارَ الأرقمِ بعد الرُّجوعِ من رحلةِ الصيدِ .

ومضى « حمزةُ » إلى رحلة الصَّيد فى أودية مكَّةَ .

وبعد عودة « حمزة » من رحلة الصيد مُتَقَلِّداً قَوْسَهُ اعترضتْ « حمزةَ » امرأةٌ قائلةً :

ـ « يا أبا عمارَة لو رأيتَ ما لَقِىَ ابنُ أخيكَ الصادقُ الأمينُ من أَبى جَهْلٍ ! !

ـ « ماذا تَعنين يا امرأةً هل أُصيبَ محمدٌ بمكروه ؟ » .

ـ قالتْ المرأةُ . « لقد سبَّه أبو جهل وآذاه وبَلَغَ منهُ مَايَكْرهُ ثُمَّ انصرفَ عنه » .

أَثارتْ كلماتُ المرأة كلَّ نوازعِ الغضبِ فى نفسِ « حمزةَ » ولكنْ هلْ يسكتُ « حمزةُ » على ما فعل أبو جهلٍ ؟

مضىَ « حمزةُ » إلى مجلسِ أبى جهلٍ فَوَجَدَهُ جالساً فى عنجهية وتَكَبُّرٍ بينَ سادات قريش .

إتَّجَهَ حمزةُ إلى (أبى جهلٍ) ثُمَّ رفَعَ قَوْسَه وضَرَبَه به فَشَجَّهُ شَجَّةً بَليغَةً مُنْكَرَةً . ثُمَّ صَاحَ فيه :

« أَتَشْتُمُهُ وأنا على دينه أقولُ ما يَقولُ ؟ »

حينئذ قامَ بعضُ الجالسين من بنى مَخْزُومٍ وأَيْدِيهمْ على مقابضِ سيوفِهم يريدونَ أَنْ يثأروا لأبى جهل من حمزة .

فاستَعدَّ لهم حمزةُ غَيْرَ مُبالٍ بكثرة عددهم .

وعند ذلك وقفَ (أبو جهلٍ) وقال : دَعُوا (حمزةَ) فإنِّى والله قد سَبَبْتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحاً .

ومضى « حمزةُ » كالأسد من مجلسِ قريشٍ .

وهكذا أصبح « حمزةُ » ـ رضى الله عنه ـ مسلماً عن إيمان بدين الحق ، وكان إسلامُه وليد حب ودفاع عن ابن أخيه الحبيب ﷺ .

ومضى حمزة إلى ابن أخيه فى الصباح وطالما شاقه أن يجلس إليه ، ولقد فرح الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمون معه بإسلام « حمزةَ » فرحاً شديداً .

وشرعَ رسولُ الله يتلو بعضَ ما أنزلَ الله وحمزةُ ينصتُ إلى آيات القرآنِ الكريم . لقد زلزلتْ آياتُ الله تعالى أركانَ نفسِ حمزةَ القوية .

ولم يلْبثْ « حمزةُ » أن أعلنَ إسلامه على الملأ من قريش .

لقد كان إسلامُ « حمزةَ » نصراً للمسلمين وزلزلة لعروش الشرك .

عرفتْ قريشُ بإسلامِ حمزةَ ومضى حمزةُ يتحدى قريشاً بإسلامه وهى تحاذر أن يكون لها معه صِدام ومضت الأيام وحمزة على العهد يزداد قوة وعزيمة وهاجر حمزة إلى المدينة المنورة مع من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ وحين بدأ التناوشُ بين المسلمين والمشركين وأذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالقتال كان (حمزة) فى طليعة المجاهدين من المهاجرين والأنصار الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن دين الله .

وفى أحد الأيام خرج « حمزةُ » على رأس مجموعة من ثلاثين فارساً تزودوا بنصائح رسولِ الله ﷺ وانطلقوا إلى ساحل البحر والتقى حمزة عند الساحل مع قافلة لقريش قوامها ٣٠٠ راكب من أهل مكة كان على رأسهم أبو سفيان بن حرب وأوشك أن يقع القتالُ لولا تدخلُ رجلٍ اسمه مجدى بن عمرو وقف حاجزاً بين الفريقين .

أدركتْ قريشُ دورَ « حمزةَ » الذى حمل أول لواء فى الإسلام وعندما دعى المسلمون إلى الجهاد ومواجهة الشرك فى غزوة (بدر) جمع رسولُ الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ٣٠٠ مجاهد التقوا مع ١٠٠٠ مقاتل من فرسان قريش الذين

جاءوا يريدونَ القضاءَ على محمد ﷺ والذين آمنوا معه ولكن الله يريدُ أن يُعزَّ دينه وينصرَ رسولَه على الشرك والوثنيةِ وعسكر الجيشان عند ماء بدر ، وكان المسلمون قد سبقوا المشركين إلى المَاء وإستبدَّ العطشُ بالمشركين بعد أن حجز المسلمون عنهم الماء ، فاندفعَ أحدُ المشركين وأقسم أن يشرب من مـاء بدر فبادره « حمزةُ » وضربه بالسيف فَقُطعَتْ رجلهُ .

وبرز من صفوف المشركين ثلاثةٌ من فرسان قريش وقفوا متعاظمين بقوتهم ونادى (عتبةُ بن ربيعةَ) وهو من صناديد قريش « يا محمد أَخْرِجْ إلى أكفاءنا من الفرسان » .

وَهنا صدرت أوامر القائد (محمد رسول الله ﷺ)

قُمْ ياحمزةَ بن عبد المطلب ، قم يا عبيدةَ بن الحارث بن عبد المطلب ، قم يا على بن أبى طالب بن عبد المطلب .

ووقف النبى الكريم ﷺ يدعو الله حتى صرع حمزةُ خَصْمَه (شيبة بنَ ربيعةَ) ، وَصَرعَ علىُ بن طالب خَصْمه الوليدَ بن عتبةَ ونظر حمزةُ وعلىُ فإذا (عبيدةُ) قد أُصيبَ فإنهالا على (عتبة وقتلاه) .

وقد نال « عبيدةُ بنُ الحارثِ بن عبد المطلب » وسامَ أول شهيد فى الإسلام .

والتقى جيشُ المسلمينَ وجيشُ المشركين بعد ذلك وراح « حمزةُ » يصولُ ويجولُ ، وكان كالأسد مما جعل رسول الله ـ ﷺ يُطْلقُ عليه لقبَ (أَسدُ الله وأسدُ رسوله) .

وانتهت غزوة بدر بهزيمة المشركين ، ومضت قريش مرتدة بعد الهزيمة الساحقة التى لحقت بهم بعدأَنْ خسرت كثيراً من ساداتها كأبى جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، ولما وصلت أنباء هزيمة المشركين فى بدر إلى مكة تلقتها نساء قريش بالحزن والأسى .

وكان أشدهن صراخاً هى (هند بنت عتبة) زوجة أبى سفيان التى فقدت

فى يوم واحد وعلى يد فارسٍ واحد هو (حمزةُ بنُ عبد المطلب) أباها وابنها وعمها وأخاها .

حمزة فى غزوة أحد

وَصَلَتْ أنباءُ الهزيمةِ النكراءَ ـ التى لحقت قريشاً ـ إلى مكةَ ، وراح دعاةُ الثأر منها يتشاورون ويتهيأون بعد أَنْ أَذَلَّ « حمزةُ بن عبد المطلب » سادات قريش وقتل بيديه عدداً من سادات قريش بما جعلَ قريشاً جميعَها مهتمةً بأمرِ هذا الفارسِ أسد الله وأسد رسوله .

ولكنَّ امرأةً واحدةً فاقَ حقدُها حقدَ الجميع على حمزةَ بنِ عبد المطلب فهى تفكِّرُ ليلَ نهارَ فى الانتقامِ من أسد الله ـ ثأراً لأبيها وعمها وابنها وأخيها الذين قتلوا على يد (أسد الله وأسد رسوله) .

اتفاق هند مع قاتل حمزة

إستدعى « جبير بن مطعم » ـ أحدُ أشراف قريش ـ غلاماً له عبداً حبشياً اسمه (وحشى بن حرب) وكان مشهوراً بأنه يقذف بالحربة ولا يخطئ ووعده إذا قام بقتل حمزة بن عبد المطلب أن يعتقه وفى الطريق إلى المدينة كانت (هند بنت عتبة) تُحَرِّضُ وحشياً على قتل حمزةَ وتعدُه بالوعود والمال الكثير .

وجاء يوم أحد فأخذ حمزةُ يقتل ويضرب ويطعن فى أعداء الله وأعداء الإسلام المشركين وانتصر المسلمون فى أولِ الأمر وأوشكَ النصرُ أن يكونَ حليف المسلمين لولا مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ وكان النبى قد أمرهم بالثبات عند الجبل وأوصاهم ألا يغادروا الجبل غير أنهم حين رأوا انتصار المسلمين وكثرة الغنائم أغراهم ذلك وتركوا الجبل وسارعوا إلى جمع الغنائم . ولكن البعض منهم لم يترك الجبل ملتزمين بأوامر الرسول ﷺ .

ولكن الله أراد أن يلقن المسلمين درساً فى الطاعة لله ولرسوله . وكان أثر

ذلك أن انهزم المسلمون بعدأن إلتفت من خلفهم قـوة من المشركين فانقضوا عليهم ولكن المسلمين بذلوا أرواحـهم فداء للرسول ﷺ يدافـعون عنه . وقاتل حـمزةُ فى أحد قـتالاً شديداً ولكنه لم يـعلم أن هناك من يتتبع خطوات الـفارس البطل الذى يصول ويجـول ويكر ويفر بسرعـة كبيـرة . أو أن هناك اتفاقاً علـى قتل هذا البطل (أسد الله وأسد رسوله) .

تحين (وحشى) الفرصةَ المناسبةَ لاقتناصِ حمزةَ غدراً .

ورفع وحشى حَرْبَتَهُ ثم دفـعها دفعةً قويةً فى اتجاه أسد الله فـوقعت قريبة من القلب وما لبث أن استشهد (أسد الله وأسد رسوله) .

وصعـدت روح الشهـيد إلى بارئهـا وسقط البطل ومات الـفارس . ثم ترك وحشى ساحةَ المعـركة بعد أن حقق غرضه وهو قتل حمـزة بن عبد المطلب بعد أن قتـل خير الـناس . بعد ذلك أسلم وحـشى وشارك مع المسلمين فى حـروب الردة وقتل مسليمة الكذاب وهو بذلك قد قتل شر الناس .

هند فى ساحة المعركة

أخذت هند بنت عـتبة تمثل بالقتلى مـن المسلمين معها . وكـانت هند تبحث عن حمزة حـتى وقعت عيناها على جثة حـمزة وأخذت تقترب من جـثة (أسد الله وأسد رسوله) وصرخت بأعلى صوتها :

نحن جـــزيناكم بيـــوم بدر ... والحـرب بعـد الحـرب ذات سـعـر

ما كان عن (عـتبة) لـى من صبـر ... ولا أخـى وعـــمــه وبكـرى

شـفـيت نفـسى وقـضـيت نذرى ... شـفـيت (وحـشـى) غليل صـدرى

فـشكر (وحـشـى) على عـمـرى ... حـتى ترم أعـظمى فى قـبـرى

وأدركها أبو سفـيان زوجها فوقف عند جثـة (حمزة) وراح يضرب بالرمح هو يقول (ذق ياعقق) .

الرسول يتفقد الشهداء

جاء رسول الله ﷺ بعد أن وضعت الحرب أوزارها يتفقد شهداء المسلمين وجرحاهم ، وألتمس حمزةَ فوجده قد شق بطنه وقطع أنفه وأُذناه وفى جسده عشرات الجراحات والطعنات والضربات ووقف عنده رسول الله ﷺ وقال :

« والذى نفس محمد بيده لولا أن تحزنَ أُخْتُه صفية أو تكون سنة من بعدى لما دفنته ولكنت تركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . جزاء ما فعلوا بأسد الله وأسد رسوله » .

ولم يجد رسول الله سبيلاً لتكريم أسد الله ورسوله أبلغ من أن يصلى عليه مع كل شهيد من شهداء أحد وكانوا سبعين من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ .

إسلام هند بنت عتبة

بعد ذلك أسلمت هند يوم فتح مكة وحسن إسلامها وذلك أن هندا قالت لأبى سفيان إنى أريد أن أبايع محمداً .

ـ قال لها أبو سفيان : قد رأيتك تكرهين هذا الحديث أمس ؟ قالت : إنى والله ما رأيت الله عُبِدَ حَقَّ عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة والله إن باتوا إلاَّ مُصَلِّينَ قياماً وركوعاً .

ـ قال : فإنك قد فعلت ما فعلت فاذهبى برجل من قومك معك فذهبت إلى عثمان بن عفان فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهى منقبة فقالت : يارسول الله الحمدُ لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتمسنى رحمتك يامحمد إنى امرأةٌ مؤمنةٌ بالله مصدقة به ثم كَشَفَتْ عن نقابِها وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : مرحباً بك .

وقد توفيت هند فى خلافة عمر بن الخطاب فى اليوم الذى مات به أبو قحافة والد أبى بكر الصديق .

إسلام « وحشى »

« وحشى بن حرب » الحبشى .

هو من سودان مكة قاتل « حمزة بن عبد المطلب » رضى الله عنه - يوم أحد - وشارك فى قتل « مسيلمة الكذاب » يوم اليمامة وكان يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإســـلام وسئل « وحشى » عن كيفية قتله « لحمزة بن عبد المطلب » قال : كنت غلاماً « لجبير بن مطعم » وكان عمه « طعيمة بن عدى » قد قتل يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لى « جبير » : إن قتلت «حمزة » عم « محمد » فأنت حُرٌّ فخرجت مع الناس حين خرجوا إلى أحد فلما التقى الناس خرجت أنتظر « حمزة » وأتبعه حتى رأيته مثل الجمل يهد الناسَ بسيفه هدّاً فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها دفعتها إليه فوقعت فى ثنيته حتى خرجت من بين رجليه .

وبعد ذلك أقام فى مكة حتى فتحها الرسول ﷺ وشهد شهادة الحق أمام الرسول وقال له الرسول : وَحْشِىٌّ ؟ قلت : نعم قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة فحدَّثْتُه . فلما فرغتُ قال : ويحك غيب وجهك عنى فلا أراك .

٢ ـ خالد بن الوليد
سيف الله المسلول

كان أبوه أحد أشراف قريش فى الجاهلية . ولقد شهدت مكة خالد بن الوليد بن المغيرة أنبل فتيانها وأشجع فرسانها حيث كانت له المنزلة الرفيعة بين رجال قريش وهو لم يبلغ بعد سن الرجال .

عند ظهور الإسلام كان الوليد بن المغيرة ـ والد خالد ـ من أشد أهل مكة محاربة له ، واضطهاداً لأتباعه فقد كان أحد رءوس الشرك ، فلما مات متأثراً بمرضه تطلع خالد من دون إخوته إلى احتلال مكانة أبيه ، وكان المشركون حريصين أشد الحرص على بقاء خالد بينهم بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، وكان أول لقاء بين جمع المسلمين وجمع المشركين فى ساحة القتال (بدر) وكان خالد أحد ألوية الشرك كما كان أخوه الوليد بن الوليد بين المقاتلين .

وشاء الله أن يؤسر الوليد بن الوليد أخو خالد بن الوليد فى غزوة (بدر) وحين خيّر النبى ﷺ أسرى بدر بين الإسلام أو أن يفتدى الأسير أهله سارع خالد إلى افتداء أخيه .

فلما رجع إلى مكة فوجئ خالد بإعلان أخيه الوليد إسلامه فى مكة أمام كل أهل الشرك والضلال والوثنية .

وعندما سأله خالد فى ذهول واستغراب عن سبب إسلامه فى مكة ؟ ولماذا لم يسلم وهو بين المسلمين فى المدينة ؟ قال الوليد : لقد رأيت من معاملة المسلمين

لى فى الأسر ما لم ألق من أقرب الناس لى، ولكنى خشيت أن أسلم فى المدينة فيقال إنى أسلمت خوفًا من الأسر .

وكانت ثورة خالد عظيمة لما حدث من إسلام أخيه الوليد بن الوليد بن المغيرة ؛ وكان خالد على رأس فرسان المشركين في غزوة أحد ، وهو الذى ألتف بجنده حول المسلمين لما خالف الرماة من المسلمين أمر رسول الله ﷺ ، وعندما خرج المسلمون لزيارة بيت الله الحرام فى عام (الحديبية) توجَّه خالد على رأس جيش من المشركين لرد المسلمين عن المسجد الحرام وقد أدركهم خالد وهم يصلون والنبى ﷺ يؤمهم ، وكان لهذا المشهد الرهيب أثره فى نفس خالد ولم يمض وقت طويل حتى أرسل له أخوه الوليد يدعوه إلى الإسلام ويخبره أن رسول الله ﷺ سأل عنه وقد جاء خالد بين يدى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه قبل فتح مكة ، وكانت أولى كلمات خالد :

يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن فى حرب الإسلام فادع الله أن يغفر لى كل ذلك يا رسول الله صلى الله عليك .

فأجابه النبى الكريم ﷺ مطمئنًا قلبه :

« إن الإسلام يمحو ما كان قبله يا خالد » .

وعندما ألح خالد مؤكدًا رجاءه فى مغفرة الله له دعا له الرسول ﷺ فقال : «اللهم أغفر لخالد كلَّ ما قَدَّمَ من صَدٍّ عن سبيلك » .

وهكذا تحول خالدٌ من قائد لجيش المشركين إلى قائد لجيش المسلمين ، وسيف مسلول من سيوف الله .

وشهد بعد ذلك المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يخرج مقاتلاً فى صفوف جند الله .

غزوة مؤتة

غمس نور الإسلام أرجاء قلب خالد وبعد ذلك دخل فى كثير من المعارك

جعلته بحق سيفًا من سيوف الله ، وكان ذلك فى غزوة مؤتة وقد جعل رسول الله ﷺ الإمارة لزيد بن حارثة ، فإن قتل فلجعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فلعبد الله بن رواحة ، وقد لقى الثلاثة مصرعهم وبحث المسلمون عن قائد يتولى قيادة الجيش فوجدوا ذلك فى خالد بن الوليد فولوه الإمارة عليهم بعد استشهاد الأمراء الثلاثة الذين ولاهم رسول الله ﷺ .

كان جيش المسلمين قليل العدد أمام جيش الروم الذى كان أضعاف أضعاف المسلمين .

ولم يكن أمام خالد إلا الإنسحاب بأقل الخسائر ، وعاد الجيش إلى المدينة ولم يفقد إلا عددًا ضئيلاً ، وهناك استقبلهم الصحابة بالعتاب على الإنسحاب والفرار من المعركة ولقبوهم بالفُرَّارِ .

ولكن الرسول ﷺ قدر ما فعله خالد وقال : « إنهم الكُرَّارُ بإذن الله وليسوا بالفرار ، وما خالد إلا سيف من سيوف الله » .

حروب الردة

بعد إنتقال الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الرفيق الأعلي ضاقت الأرض حول المسلمين ، وعاد المفسدون والمنافقون إلى كفرهم وضلالهم وارتد كثير ممن كان قد أعلن الإسلام وامتنعوا عن دفع الزكاة ، وهنا قام الخليفة الأول رضى الله عنه « أبو بكر الصديق » ليقف فى وجه أكبر فتنة وهى فتنة الردة ، وكان " لخالد " دور عظيم يذكره له التاريخ بحروف من نور .

سار « خالد » بجيشه إلى " طليحة الأسدى " الذى ادعى النبوة وأعد " طليحة الأسدى " أربعين ألف مقاتل فقاتلهم خالد بمن معه من المسلمين قتالاً شديداً ، وكان الإنتصار الكبير للمسلمين الصادقين ، وكانت الهزيمة للمفسدين والمنافقين . وفرت جموع طليحة إلا أن خالداً تعقبهم ونفذ فيهم وصية أبى بكر .

وتوجه بعد ذلك إلى " مالك بن نويرة " الذى امتنع عن دفع الزكاة فقتله "

خالد بن الوليد " سيف الله المسلول وتزوج من زوجته وهذا مما أثار " عمر بن الخطاب " وطلب من " أبى بكر الصديق " عزل " خالد بن الوليد " ولكنه رفض هذا الأمر وقال « والله لا أغمد سيفًا من سيوف الله سله الله على المشركين » .

لقاء خالد مع مسيلمة الكذاب

لم يكن أمر " طليحة الأسدى " و " مالك بن نويرة " ذا شأن إذ كان هناك من هو أقوى من هؤلاء وهو " مسيلمة الكذاب " فقد ادعى النبوة وآمن به قومه بنو حنيفة وكان موطنهم اليمامة باليمن ، وأحبوه وأنضمت إليه مدعية أُخرى اسمها (سجاح) وتزوج منها مسيلمة ، وضمت رجالها إلى رجال " مسيلمة الكذاب " .

وجاء " خالد " بجيشه وأخذ يحث الجنود على قتال " مسيلمة الكذاب " وقومه ، وانتصر المسلمون واستشهد منهم ألفان فيهم الكثير من حفظة القرآن وقتل عشرة آلاف من أتباع " مسيلمة الكذاب " .

وهكذا انتهت حروب الردة داخل الجزيرة العربية ، وصلى المسلمون شكراً لله على إخماد نار فتنة الردة إلى الأبد .

التى كان الفضل فيها إلى القائد الحكيم سيف الله المسلول " خالد بن الوليد بن المغيرة " .

فتحه العراق وحروبه فيها

أدرك الصديق أن امبراطورية الفرس فى العراق وفارس . والروم فى الشام ، هما أشرس دولتين ، وأن دورهما الخطير فى حروب الردة فيه تهديد للإسلام فأرسل لهم " خالداً " يدعوهم إلى الإسلام وإلا فالجزية أو القتال .

كانت أول وقائع خالد بن الوليد فى العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة وكان اسم صاحبها هرمز ، فبرز إلى خالد بجيشه مقترنين بالسلال كى لا يفروا ، فطلب خالداً للمبارزة ولم تستمر المبارزة كثيراً حتى انتصر عليه خالد ، وكان فى

نية القـائد الفارسى أن يغـدر بخالد أثناء المبارزة ولـكن سيف الله خالد كـان أسرع فقد صرعه . وتبعه جيش المسلمين وانقضوا على جيش الفرس وأخذ خالد قلنسوة هرمز والقلنسوة هى عند الفرس شعـار الشرف وأرسلها إلى بيت مال المسلمين إلا أن الخليفة الصديق منحه إياها مكافأة له .

وسميـت هذه المعركة " ذات السلاسل " لأن الفـرس كانوا يربطون جنودهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركـة ، وتلا هذه المعركة ثلاث معارك أخرى ، ولما التقى خالد بهـرمز فى الحفير أرسل الثانى كـتابًا إلى كسرى يستمـده فأمده بجيش عظيم بقيـادة قائد اسمه قـارون ، فلما وصل الجيش لقى المنهزمين من جـيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا إلى " الثنى " وهو النهر ، وسار إليه خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبى وكان ضمن الأسرى أبو الحسن البصرى الشهير وكان نصرانيًا .

ثم بعد هذه الواقـعة قصد خـالد الحيرة وبعد مناوشـات خفيفـة انتصر فيـها المسلمون وكان فتح الحيرة فى شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة من الهجرة .

ومن الحيـرة سار خـالد إلى دومة الجندل بـعد أن حاصـرها عيـاض بن غنم فخرج الجـودى صاحب دومة الجندل إلى خالد بطائف من قومـه وأرسل إلى قتال عـياض طائفـة أخرى ، ولكن انهـزمت الطائفـتان فى آن واحـد ، وأخذ المسلمـون الحصن .

وكانت آخر وقائعه وقعة الفراض فى شمال العراق .

فتوح الشام

لما فرغ " أبو بكر " رضى الله عنه من قتال أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشـام فكتب إلى أهل مـكة والطائف واليـمن وجـمـيع العـرب بنجـد والحـجـاز يستنفرهم لـلجهاد ويرغبهم فـيه وفى غنائم الروم، فعقد ثلاثـة ألوية لثلاثة رجال ، ولم يكن من اليـسيـر أن يقطع خالد بجيشـه تلك المسافـة التى تفصل بين الـعراق والشام ، ولكن خالدا دعا أحـد رواد الصحارى المشهورين فجعل يسـتوضحه عن

أقصر الطرق ثم استقر رأيه على اصطحابه معه فى الرحلة الشاقة بين العراق والشام .

وعندما وصل خالد بجيش إلى اليرموك التقى هناك بجيوش المسلمين فانضم إليهم . جمع الروم جيوشهم حتى بلغت مائتى ألف مقاتل ، ولما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ فى تعبئة الجيش تعبئة لم يكن لها مثيل فى تاريخ العرب .

وشهدت معركة اليرموك نماذج فذة من الإقدام وبذل الروح والنفس فى سبيل الله .

وإلتقى خالد فى اليرموك بالقائد الرومانى (جرجة) وقبل أن يتبارزا قال جرجة الرومانى لخالد :

يا خالد اصدقنى ولا تكذبنى هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاك إياه فأنت تسله على أعدائك فتهزمهم به ؟

فأجاب خالد بن الوليد : لا يا هذا .

قال القائد الرومانى : فلماذا سُميت سيفَ الله ؟

قال خالدٌ : إن الله بعث فينا رسولَه ﷺ فصدق منا من صدق ، وكذب من كذب ، وكنت أنا فيمن كذب حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام وهدانا برسوله ﷺ فبايعناه فدعا لى رسول الله ﷺ وقال لى أنت سيف من سيوف الله . هكذا سُميت سيف الله .

وبعد حديث طويل مع القائد الرومانى جرجة دخل نور الإسلام قلبه ، وأسلم وصلي لله ركعتين لم يصل سواهما ثم انطلق يقاتل فى صفوف المسلمين يرجو الشهادة فى سبيل الله حتى نالها ولقى الله على الإسلام .

استمرت جيوش المسلمين تزلزل الروم وتدك صفوفهم وتلحق بهم الهزيمة تلو الهزيمة .

ولقى عكرمة بن أبى جهل وعمه الحارث المخزومى وضرار بن الأزور

مصرعهم ، وكتبت لهم الشهادة ، وكان النصر حليف المسلمين، ولم تمنع السلاسل التي ربط بها جنود الروم أنفسهم من الفرار من ساحة القتال .

يوم أجنادين

ثم كانت موقعة أجنادين وشهدها من الروم زهاء مائة ألف سرب ، وكان هرقل يومئذ مقيما بحمص فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً ، وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاءً حسنًا ، ثم إن الله هزم أعداءه ومزقهم وقُتِلَ منهم خلقٌ كثير واستُشْهِد يومئذ عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية .

عزل خالد بن الوليد

وصل كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أهل الشام يعزيهم فى وفاة أبى بكرٍ وذكر وفاته رضى الله عنه وقال فى الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ....

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى من بالشام من المسلمين سلامٌ عليكم ، فإن من الحادث الذى حدث على هذه الأمة أنّ أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ توفى فإنا لله وإنا إليه راجعون رحمةُ الله ورضوانه على أبى بكر القائمِ بالحق القائل بالصدق والآمر بالصدق والآخذ بالقسط والمعروف الرؤوف الرحيم الورع الحكيم . فرغب فى الله برحمته ، والعمل بطاعته ، والخلود فى جنته إنه على كل شئ قدير، وإذا ورد عليكم كتابى هذا وقرأتموه فالأميرُ عليكم أبو عبيدةَ بن الجراح وهو أمير جماعتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ثم كتب عمرُ إلى أبى عبيدةَ بن الجراح رضى الله عنه كتابًا صغيرًا وجعله فى وسطه وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم ...

« من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبيدة بن الجراح السلام

عليك .. أما بعد فإنك بحمد الله فى كنف من المسلمين وعدد يكفى بعضهم حصار أهل دمشق ، فإذا ورد عليك كتابى هذا فاقرأه على من قبلك من المسلمين وخبرهم بأنك الوالى عليهم » .

فلما ورد كتاب عمر ـ رضى الله عنه ـ على أبى عبيدة بعزل خالد بن الوليد وولايته على المسلمين استحى أن يخبر خالدًا ثم جعل يصلى خلفه ولا يبدى له شيئًا حتى سمع خالد بعزله وذلك أنه سمع الناس يقولون لأبى عبيدة أيها الأمير ، وعلم وأيقن أنه معزول فقال : " رحم الله أبا بكر أما إنه لو كان حيًا لما عزلنى أبدًا ، وأنت يا أبا عبيدة رحمك الله كيف لم تعلمنى بعزلى وولايتك على وأنت تصلى خلفى ولك السلطان علىَّ ؟ " .

وفاة خالد بن الوليد

لم يكن عزل عمر لخالد بن الوليد لكراهيته أو عجزه ، وحين سُئِلَ الفاروقُ عمرُ بن الخطابِ ـ رضى الله عنه ـ عن سبب عزل خالد قال : « إنى لم أعزله من لحظة أو خيانة ولكن الناس فُتنوا به فَخفْتُ أن يُوكَلُوا إليه » .

ولما حضرت خالدَ بن الوليد الوفاةُ قال : لقد شهدتُ مائةَ زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضعُ شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ أو طعنةٌ أو رَمْيةٌ وها أناذا أَموتُ على فراشى كما يموتُ البعيرُ فلا نامتْ أعينُ الجبناء .

ولقد توفى خالد بن الوليد فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فحزن عليه الفاروق حزنًا شديدًا ، رحمَ الله خالدًا ، قلَّ أن يوجد قائدٌ فى العالم يُوفَّقُ إلى النصرِ فى كل وقائعهِ ، كما وُفِّق خالدُ بنُ الوليدِ ـ رضى الله عنه ـ .

٣ ـ أبو عبيدة بن الجراح
أمين الأمة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال ، واشتُهِرَ بكنيته ونسبِه إلى جدِّه فيقال أبو عبيدة بن الجراح .

وهو أحدُ العشرة المشهودِ لهم بالجنَّةِ ، وشَهِد بدراً وأُحداً ، وهو من السابقين إلى الإسلام .

إسلامه :

كان أبو عبيدة بن الجراح فارساً شجاعاً وبطلاً وقائداً من أشهر القواد فى الحروب ، وكان الصدِّيقُ ـ رضى الله عنه ـ أوَّل الرجال الذين صدقوا محمداً ﷺ وبايعوه على دينِ الإسلام ، بل لقد كان أبو بكر أوَّلَ الدعاةِ إلى الدين الذى جاء به محمدٌ ﷺ .

وذات يوم جلس أبو بكر يتحدث إلى صديقه أبى عبيدة بن الجراحَ وما كان لأبى بكر بعد أن اعتنق الإسلام حديث غير الإسلام فشرح الله صدر أبى عبيدة للذى آمن به أبو بكر الصديق وانطلق أبو بكر الصديق بأبى عبيدة إلى رسول الله ﷺ حيث أعلن إسلامه بين يديه وشَهِدَ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

أبو عبيدة يقتل أباه

فى غزوة بدر كان أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح يقاتل فى صفوف المسلمين ، وأبوه عبد الله بن الجراح يقاتلُ فى صفوف المشركين ، وكان المشركون

يفرون من أمامه . إلا رجلاً واحدا كان يتصدى لأبى عبيدة وأبو عبيدة يَتَجَنَّبه ويحاول ألا يلتقى معه فى قتال ولكن الرجل كان يلحُ فى طلب أبى عبيدة ليقْتُله وأبو عبيدة يهرب منه ويتحاشى لقاءه كان هذا الرجل هو أبوه عبد الله بن الجراح ، والتقى السيفان فالأبُ يقاتل كفرًا وشركًا وإلحادا ، والابنُ يقاتلُ عن إيمان بالله وتصديقًا به وبرسوله .

وتقاتلا الأب والأبنُ قتالاً ضاريًا وهوى الابنُ على الأب يمزِّقُ أعز الناس عليه ... وتهامس الكفارُ يتحدثون عن قسوة أبى عبيدة ، والمسلمون يتحدثون عن إيمان أبى عبيدة .

أطمأنت نفس أبى عبيدة بن الجراح ، عندما نزل الوحى السماوى ﴿ لا تجدُ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون منْ حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانُوا آباءَهمْ أو أبناءَهمْ ﴾ يقدر هذا الصنيع الذى كان منه فى سبيل الإيمان بالله .

غزوة أُحدُ

فى ثانى لقاء بين المسلمين والمشركين عند جبل أُحد كان ما كان من قتال وثبت حول النبى ﷺ بعض الصحابة حين أشاع المشركون أن محمداً ﷺ قد قُتلَ ولما أُصيب النبىُ الكريمُ وكُسرتْ رُباعيتُه بسبب دُخول حَلْقَتين من درع وجهه الحديدى فى خده الشريف أبصره أبو بكر وأبو عبيدة فابتدروا إليه . فقال أبو عبيدة: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تَركْتنى لأنْزعهما من وجنة رسول الله ﷺ فداه أبى وأمى .. فأخذ أبو عبيدة بثنْيَته إحدى الحلقتين فنزعها وسقط على ظهره وسقطتْ ثنْيته أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقةَ الأخرى بثنيته الأخُرى فسقطت فكان أبو عبيدة فى الناس أهتم(١) .

ولم يتخلف أبو عبيدة عن مشهد من المشاهد مع رسول الله ﷺ فى قتال الشرك والمشركين ، حتى كان موضع ثقة النبى ﷺ وكان فى مقدمة موكب رسول الله ﷺ فى فتح مكة .

---

(١) الأهتم : الذى سقطت منه سنه الأمامية .

أمين هذه الأمة

سأل أهل اليمن رسول الله ﷺ أن يرسل معهم رجلا يعلمهم السُنة فأخذ بيد أبى عبيدة بن الجراح وقال : « هذا أَمينُ هذه الأُمَّة » .

ولما جاء وفد نجـران إلى النبى ﷺ قالوا ابعث معنا رجلاً أمينا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها .

قال لـهم رسول الله ﷺ : « إئتـونى غدا أَبْعَثُ مـعكم رجلاً أمـينا حق أمين » فكان عمـر بن الخطاب يقول « مـا أحببتُ الإمارة قط حُـبى إياها يومئـذ رجاء أن أكون صاحبها فرحت إلى صـلاة الظهر فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهرَ سلم ثم نظر يمينه ويسـاره فجعلت أتـطاول له ليرانى فلم يزل يلتـمس ببصـره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال له :

« أُخْرُج معهم فاقض بينهم بالحقِّ فيما اختلفوا فيه » .

أبـو عبيدة حكيمًا وزاهدًا

لما وصل عمرو بن العاص أرض الشـام خاف أن يهزم فطلب المدد من النبى ﷺ فأمده عليه الصلاةُ والسلامُ بسرية من المهـاجرينَ والأنصار فيهم أبو بكرٍ وعمر بنُ الخطاب وجعَـلَ أبا عبيـدة بن الجرَاح أمـيرًا على السرية ، فلـما وصل المَدد إلى عمرو بن العاص قال لهم : أنا أميرُكم فلقد أرسلت إلى رسول الله ﷺ استمده بكم فقـال المهاجـرون : بل أنت أميـر أصحـابك وأبو عـبيـدة أمـيرنا ، فـقـال عـمرو بن العاص: أنتم مدد أمددت به .

فلما رأى ذلك أبو عـبيدة ـ وكان عـاقلاً حكيمًا ـ بوادر الخـلاف خاف على المسلمين من الفـتنة وسارع إلى إجابة طلب عـمرو بن العاص حـتى لا يكون هناك فتنة ، وقال له يا عـمرو : إن آخر ما عهد به رسـول الله ﷺ أن قال لى : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا » وإنك إن عصيتنى لأطيعنك .

وبذلك يتضح لنا مدى حكمة أبى عبيدة بن الجراح .

ويوم تُوفِّى النبىُّ ﷺ قال عمر بن الخطاب لأبى عبيدة بن الجراح: ابسط يدك لأُبايعَك فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ فامتنع أبو عبيدة ولام عمر وقال له : ما رأيتُ لكَ فَهَّةً منذُ اليوم . أتبايعنى وفيكم الصِّديق وثانى اثنين إذ هما فى الغار .

أبو عبيدة قائدًا شجاعًا

وفى خلافة الصديق أبى بكر تولى أمينُ الأمة أبو عبيدة الإشراف على بيت مال المسلمين ، ثم كان قائدًا لمواجهة المرتدين فى حروب الردة ، ثم قائدًا لواحد من جيوش الفتح الإسلامى إلى الشام .

فلقد عقدَ أبو بكرٍ الصديقُ ـ رضى الله عنه ـ أربعة ألوية لجيوش الفتح الإسلامى التى سيرها على بركة الله إلى بلاد الشام ، فكان لأبى عبيدة قيادة أحد الجيوش الأربعة ، كما كُلف بأن يكون القائد العامَّ لها جميعًا حين التجمع .

ودفعته شجاعته لأن يقهر الروم ويقتحم حصونهم ويحقق أكبرَ نصرٍ للإسلام والمسلمين فى فتح بلاد الشام .

حيث كان بعيد النظر فى وضع الخطط العسكريةِ .

معركة اليرموك

جمع هرقل جموعًا كثيرةً من الروم وأهل الشام ، وكانوا حوالى مائتين وأربعين ألف مقاتل ، وكان عدد المسلمين أربعين ألفا ، وكان فيهم ألف صحابى منهم نحو مائة ممن شهد بدرًا .

وخرجت الروم فى تعبئة فلم يُر مثلها قط ، وخرج خالد فى تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك وجعل فى القلب أبا عبيدة وجعل على الميمنة عمرو بن العاص وشرجبيل بن حسنة ، وجعل على الميسرة يزيد بن أبى سفيان (ذكر ذلك ابن

الأثيـر فى كتابه الكامل فى التاريخ) وكان تأثير القلب الذى جعل خالد بن الوليد عليه أبا عبيدة تأثيراً كبيراً وهجومه صاعقًا على قلوب الروم .

وكـتب أبو بكر الصديق إلى أبى عـبيدة بن الجـراح قبل المعـركة يقـول له : «سلامٌ عليك أما بعد .. فقد ولَّيْتُ خالداً قتال العدو فى الشام فلا تُخالفْه واسمعْ له وأطعْ فإنى ولَّيْتُه عليك وأنا أعلم أنك خـيرٌ منه ولكن ظننْتُ أنَّ له فِطْنةً فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

وكتب خـالد بن الوليـد إلى أبى عبيـدة يقول له : السلامُ عليك . « أمـا بعد فقـد أتانى كتـابُ خليفـة رسول الله يأمـرُنى بالسفر إلـى الشام والقيـام إلى جندها والتولى لأمرها . والله ما طَلبْتُ ذلك قط ولا أردته إذا وُليتَه فأنت على حالك الذى كنت عليه لا نعصـيك ولا نقطعُ أمراً دونكَ فأنت سيـد المسلمين . لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك » .

فى أثناء موقعة اليرموك أمـر خالد المسلمين من النساء أن يقفن وراء الرجال ويضـربن من يَفِرُّ منهـم ،وقال أبو عـبيـدة لهن : « خذن بـأيديكن أعمـدة البيـوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرضن المسلمين على القتال » .

ثم خطب أبو عبيدة فى الجند فقال :

« عـباد الله انصـروا الله ينْصُركُم ويُثـبِّتُ أقْدامَكُم ، يا عـباد الله إصْبرُوا فـإن الصبر منجاةٌ من الكفر ومرضاةٌ للرب ومدْحضةٌ للعار .. لا تتركوا مصاحفكم ولا تخطوا إليهم خطوةً ولا تبعدوهم عن ذكر الله عز وجل فى أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله » .

وفاة أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب

وفى أثناء المعـركة توفـى أبو بكر الصديقُ ـ رضـى الله عنه ـ وتولى عمـر بن الخطاب خلافة المسلمين .وكان أول عمـلٍ قام به عمر بن الخطاب أن أرسل رسالة إلى أبى عبيدة جاء فيها : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة

بن الجراح .. السلام عليك ، أما بعد فإنك بحمد الله فى كنف من المسلمين وعدد يكفى بعضهم حصار أهل دمشق فإذا ورد عليك كتابى هذا فاقرأه على من قِبَلكَ من المسلمين وخبِّرْهم بأنك الوالى عليهم .. وابعث سراياك فى نواحى الشام ولا تقر عسكرك فى جندك فيطمع فيك عدوك لكن انظر برأيك فيمن استغنيت عنه من أصحابك فسرحه إلى ما قبلى ومن احتجت إليه فى حصارك فاحبسه عندك وليكن فيمن تحبسه هناك خالد بن الوليد فإنه لا غناء بك عنه . والسلام » ، فلما ورد كتابُ عمر ـ رضى الله عنه ـ استحيى أن يخبر خالداً ثم جعل يصلى خلفه ولا يبدى له شيئًا .

حتى سمع خالد بعزله فقال رحم الله أبا بكر أما إنه لو كان حيًا ما عزلنى أبدًا وأنت يا أبا عبيدة رحمك الله كيف لم تعلمنى بعزلى وولايتك على وأنت تصلى خلفى ولك السلطان على ؟

فقال أبو عبيدة : ما كنت أحب أن أعلمك بذلك لولا أنك علمته من غيرى .

الزحف إلى دمشق

ثم زحف أبو عبيدة إلى أبواب دمشق فأحاطت الخيل بدمشق من على كل جانب فضيقوا عليهم غاية الضيق ، وحصروها وجعل خالداً فى مقدمة الجيش ، واستمر الحصار وأهل دمشق داخل المدينة فى انتظار المدد من هرقل فلما أبطأ ذلك عليهم وضاق عليهم الأمر واشتد عليهم الحصار ورأوا أن المسلمين لا يزدادون إلا قوة وصلابةً وقد كانوا علموا أن خالد بن الوليد معزول فأرسلوا إلى أبى عبيدة بن الجراح يسألونه الصلح فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك ووقع صلحهم على مائة ألف دينار . ثم تم فتح الأردن وصيدا وبيروت بعد ذلك .

فتح حمص

ولما فتح المسلمون المدائن جعل أهل حمص يحصنون مدينتهم ويجمعون

الجموع لحرب المسلمين ، ثم أنهم كتبوا إلى هرقل ملك الروم فأمدهم بعشرين ألفا من الجند .

وأهل حمص يومئذ عشرة آلاف ، وبلغ ذلك أبا عبيدة بن الجراح فكتب بذلك إلى عمر ـ رضى الله عنهما ـ فكتب إليه عمر أن قد فرغنا من أمر القادسية والمدائن والله الذى نصرنا على هؤلاء الفرس هو الذى ينصرنا على الروم .

عندها نادى أبو عبيدة بالرحيل إلى حمص فرحل ورحل المسلمون حتى وصلوا إلى مدينة حمص فنزلها وأحاط بها من كل جانب وكان ذلك حصاراً لها ، وخرج أهل حمص إلى قتال المسلمين غير أن المسلمين قتلوا منهم بشراً كثيراً ، وولى جند الروم الأدبار حتى دخلوا المدينة .

وقد ألقى الله عز وجل الرعبَ فى قلوبهم ، وبعد ذلك أرسلوا إلى أبى عبيدة يسألونه الصلح فصالحهم أبو عبيدة .

فتح بيت المقدس

لما انتهى أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ من فتح دمشق خرج بمن معه من المسلمين حتى صاروا إلى بلاد الأردن فنزل هناك ، ثم كتب إلى أهل بيت المقدس كتابًا فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها السلامُ على من اتبع الهدى وآمن بالله تعالى العلى الأعلى أما بعد .. فإنى آمركم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله عليه السلام ... فإذا شهدتم بذلك فقد حرمت علينا دماؤكم وأموالكم إلا بحقها ، وإن أبيتم ذلك سرت إليكم بقوم هم يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة ، فاختاروا واحدة من اثنتين .

وخرج أهل إيلياء إلى حرب المسلمين فاقتتلوا ووقعت الهزيمة على أهل إيلياء فقتلهم المسلمون قتلا ذريعًا حتى أدخلوهم مدينتهم .

وحين ولىَّ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أبا عبيدة بن الجراح أميراً على

الشام فإنه كان يلبس الصوف الخشن . فيقول له عمر بن الخطاب : إنك بالشام ووالى أمير المؤمنين وحولنا الأعداء ، فغير من زيّك وأصلح من شأنك فأجابه : ما كنت بالذى يترك ما كان عليه فى عصر رسول الله ﷺ .

ولما ذهب عمر إلى الشام لاستلام مفاتيح بيت المقدس دخل عمر دار أبى عبيدة بن الجراحِ فلم يجد فيها متاعًا إلا بساطًا وقربةً عتيقةً وكسيرات من خبز يابس فبكى عمرُ .

أبو عبيدة في رحاب الله

انتشر وباء الطاعون فى بلاد الشام وقضى على كثير من الجند فأصيب به أمين الأمة وكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يطلب منه مغادرة تلك البقعة ولكن القائد العظيم رفض وأبى إلا البقاء بين صفوف جيشه ملتزمًا بأمر رسول الله ﷺ : « إذا حل الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإن كنتم فيها فلا تخرجوا منها » .

ويمت أبو عبيدة شهيداً فى سنة ثمانى عشرة من الهجرة وهو فى أعز إنتصاراته ، رحم الله أمين الأمة وقائدها .

٤ـ الزُّبيرُ بن العوّام

حوارى رسول الله ﷺ

نسبه ونشأته

هو الزُّبيرُ بنُ العوامِ بن خويلد بن أسد عبد العزى بن قصى بن كلاب . يلتقى نسبه مع النبى ﷺ فى قصى ، وأمه صفيةُ بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ . كان اسمه فى الجاهلية والإسلام : الزبير ويكنى بأبى عبد الله .

تربى الزبير منذ الطفولة على الخشونة فكانت أمه تضربه ضرباً شديداً ليتعود على الحياة القاسية .

وتقول صفية بنت عبد المطلب : إنى أضربه كى يلب ويجسر الجيش ذا الجلب .

وذات يوم تقاتل الزبير وهو غلام مع غلام فكسر الزبير يده . فكان ذلك مدعاةً لفخر أمه بشجاعته وإقدامه .

وكان رغم ذلك عفيفاً تقياً ورعاً غير باغ ولاعاد واكتسب من آبائه وأجداده البطولةَ والثباتَ والعزمَ .

إسلام الزبير بن العوام

كان الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ من السابقين الأولين إلى الإسلام فكان خامسَ من أسلم من الرجال وهو ابن ست عشرة سنة .

ولما بلغ عَمَّه أن الزبير بن أخيه أسلم كان يُعَلِّقُه فى حصير ويدخن عليه بالنار ليرده إلى الكفر ولكن الزبير الذى اطمأن قلبه إلى الإيمان كان يقول :

« لا أكفرُ أبداً » .

وبعد ذلك كان الزبير رضى الله عنه موضع ثقة النبى ﷺ وقد أكرم الله الزبير بن العوام بأنه لم يسجد لصنم قط . وهو أول من سل سيفاً فى الإسلام على الكفار فذات يومٍ سمع إشاعة أن النبى ﷺ قد قُتِل فخرج الزبير شاهراً سيفه فلقيه النبى ﷺ فقال له : « مالك يا زبير ؟ » قال : سمعت يارسول الله أنك قد قتلت .قال له الرسول ﷺ « فما كنت صانعاً ؟ » . قال : أردت والله أن أستعرض أهل مكة ، ـ يعنى يُجْرِى دماءهم ـ بألا يترك أحداً منهم إلا قَتَله .

الهجرة إلي الحبشة

اشتد إيذاء قريش للمسلمين فأمرَ النبى ﷺ بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم من ظلم قريش واضطهادها وطمأنهم الرسول أن بالحبشة مَلِكاً لا يُظْلَمُ أحدٌ بأرضه .

فخرج بعض الصحابة مهاجرين إلى الحبشة وكان منهم : جعفر ابن أبى طالب وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ابن العوام حتى وقعت حرب بين النجاشى وبعض خصومه الذين جاءوا بجيش كثيف ليحاربوا النجاشى ويسلبوه مُلْكَهُ .

وعندما استمرت الحرب بين الجيشين المتقاتلين قلق المسلمون لشأن النجاشى فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مَنْ رَجُلٌ يخرج حتى يَحْضُرَ وقعةَ القومِ ثم يأتينا بالخبر ؟ فابتدر فتى قريش : الزبيرُ ـ بكل ما عرف عنه من جرأة وإقدام ـ قائلاً : «أنا ياقوم آتيكم بخبرهم إن شاء الله » . فنفخوا له قِرْبَةً فجعلها فى صدره ثم سبح عليها فى نهر النيل حتى وصل إلى ناحية النهر التى يلتقى عندها الجيشان .

وعندما انتهت المعركةُ عاد الزبيرُ إلى المسلمين ليبشرهم بانتصار النجاشى على أعدائه .

وكان خبر الزبير بشرى عظيمةً فرِحَ بها المهاجرون من المسلمين فرحاً شديداً.

خاض الزبيرُ مع النبى ﷺ غزوة بدر وكان الزبيرُ متميزاً بين الجموع بعمامته الصفراء وإقدامه وجرأته ، وفى بدر التقى الزبيرُ بعمه المشرك (نوفل بن خويلد) فلم تمنعه قرابتُه من أن يَصْرَعَه ويردُيه قتيلاً كما قتل الزبيرُ فى بدر عُبيدَةَ بن سعيد بن العاص .

وأنزل الله جندَه من الملائكة الذين شاركوا فى بدر على سيماء (هيئة) الزبير فقد كانت عليهم عمائمُ صفرٌ فقال رسول الله ﷺ : « لقد نزلت الملائكة على سيماء الزبير » .

غزوة أحد

شَهدَ الزبيرُ غزوةَ أُحد فكان من الذين ثبتوا مع النبى عليه الصلاةُ والسلامُ .

ولمَا قتل حمزةُ رضى الله عنه فى هذه المعركة أقبلتْ أُختُه صفيةُ بنتُ عبد المطلب (أمُّ الزبير) لتنظرَ إليه فقال رسول الله ﷺ : « إلْقَهَا فارْجعْها لا ترى ما بأخيها » فقال لها الزبيرُ بن العوام : « يا أُمَّهْ إن رسولَ الله ﷺ يأمُرُكِ أن ترجعى » .

غزوة الخندق

لم يتخلف الزبير بن العوام رضى الله عنه عن غزوة غزاها الرسول ﷺ وفى غزوة الخندق كان أوَّلَ من تطوعَ وكلما طلب الرسول ﷺ أحداً إلى القتال هَبَّ الزبيرُ يجيبُ النداءَ فقال النبى الكريم ﷺ :

« لكل نبى حَوَارِىٌّ وإنَّ حَوَارِيَّ الزّبيرُ » وكان الزبير رضى الله عنه كذلك أحد قادة فتح مكة مع خالد بن الوليد ولقد لقى رسول الله ﷺ ربَّه وهو راض عن الزبير ومع طول صحبته للنبى ﷺ لم يكثر من الراوية عنه بل كان قليل الراوية عن رسول الله ﷺ ، فعن عبد الله بن الزبير قال : قلت للزبير : ما يمنعك أن تحدث عن رسول الله ﷺ قال : أما والله إنى لم أفارقه منذ أسلمت ولكن سمعته ﷺ يقول: « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فلا أحب أن أحدث عنه .

كان رضى الله عنه يخشى أن ينسى أو يخطئ فى رواية الحديث عن النبى ﷺ فيقل ما لم يقله النبى عليه الصلاة والسلام ولذلك كان قليل الحديث عن الرسول ﷺ .

بيعة أبى بكر وحروب الردة

لما توفى رسول الله ﷺ كانت البيعة إلى أبى بكر وبعد أن استقرت الخلافة لأبى بكر صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وأن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق إن شاء الله . لا يدع أحدٌ منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . أطيعونى ما أطعت الله ورسولهُ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله » .

وحدثت الردة ـ فى بعض أقوام من العرب ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ .

وقد أرسل بعض رؤساء القبائل وفوداً منهم إلى المدينة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فأخبروه أنهم يقيمون الصلاة ولكنهم يمتنعون عن إيتاء الزكاة . فأجابهم أبو بكر رضى الله عنه جواباً قوياً : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه .

كان الزبير رضى الله عنه فى سائر الحروب والمعارك التى شهدها مضرب الأمثال فى الجرأة والإقدام وقد شارك فى حروب الردة . وأبلى فى ذلك أحسن البلاء فى محاربة المرتدين .

معركة اليرموك

شارك الزبير ـ رضى الله عنه ـ فى الفتوحات الإسلامية وفى موقعة اليرموك خاض خالد بن الوليد المعركة ومعه أربعون ألفاً من الجند كان فيهم ألف صحابى منهم نحو مائة ممن شهد بدراً وكان ضمن هؤلاء الزبير بن العوام الذى كان قائداً

لإحدى الكتائب التى نظمها خالد بن الوليد . وخرجَت الروم فى عدد كبير وخرج خالد فى أربعين كردوساً(١) .

وفى أثناء المعركة طلب جماعةٌ من أبطال المسلمين فقالوا للزبير: ألا تحمل على أعداء الله فنحمل معك ؟ قال الزبير : إنكم لا تثبتون قالوا : بل نثبتُ يا صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدمهم الزبير فحمل على الأعداء وحملوا معه . فما واجهوا صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر ثم عاد إلى أصحابه ثم أعاد الكرة ثانية وثالثة حتى أُصيب يومها بجرحين بليغين بين كتفيه . ذلك البطل الذى قال عنه : على بن أبى طالب رضى الله عنه : أنه أشجع الناس .

الزبير وأبو بكر الصديق

كان الزبير بن العوام صديقاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه قبل الإسلام وبعده .

وسارع الزبير بن العوام إلى بيعة أبى بكر ولم يتخلف عن ذلك وهو يعرف قدرَ ومنزلة أبى بكرِ الصديق وأنه أفضل الصحابة وأنه ثانى اثنين إذ هما فى الغار وكان الزبير أحد أصِحاب الشورى عند أبى بكر الصديق وكان خليفة رسول الله يعتمد عليه فى بعض الأمور .

الزبير وعمر بن الخطاب

لما لقى أبو بكر ربه كان راضياً كل الرضا عن الزبير . فقد كان أحد أصحاب الشورى ولم تكن منزلة الزبير عند عمر بن خطاب أقل من ذلك وقال عنه الفاروق عمر : « الزبير ركن من أركان الدين » وقد عرض عليه عمر ولايةَ مصرَ ولكنه رفض وآثر أن يكون غازياً .

فتح مصر

قصد عمرو بن العاص أرض مصر لفتحها وكان معه من القوات عدد قليل فكتب إلى عمر بن الخطاب يطلب إليه المدد فأرسل له اثنى عشر ألفاً من المقاتلين

(١) الكردوس : القطعة من الخيل العظيمة والظاهر أن كردوس المسلمين فى هذه الوقعة كان لا يزيد على ألف مقاتل .

وبعث معهم الزبير بن العوام وكان الزبير بن العوام من أشد الناس حماسة لفتح مصر حيث استشار عمر ابن الخطاب كبار الصحابة فى هذا الأمر وكان الزبير بن العوام أشد حماسة وأكثر رغبة فى النصر أو الشهادة .

وبعد معارك ضارية تحصن الروم فى حصن بابليون فلما أبطأ الفتح قيل أن الزبير وهب الله نفسه وأقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعد لذلك الأمر عدته ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن وكانوا يفتك بهم المرض ولكن ساعة الهجوم بقيت سراً فلما جاء وقتها أقبل العرب مسرعين تحت جنح الليل ووضع الزبير سلماً على السور ولم يفطن إليه أحد فما شعروا إلا والبطل العربى الزبير بن العوام على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده وإستطاع بذلك أصحاب الزبير أن يصلوا إليه فوق السلم ليهبطوا منه إلى قلب الحصن وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن فى يوم الجمعة السابق لعيد الفصح . وكان خروج الروم منه فى يوم الأثنين وهو عيد الفصح .

وانتهى حصار حصن بابليون فى سنة ٢٠ هجرية بعد أن لبث سبعة شهور .

وكان عمرو فى هذه الأثناء منصرفاً إلى عمل آخر فى بابليون إذ عزم على أن يبنى للمسلمين مدينة جديدة فى السهل الذى يلى الحصن الرومانى بينه وبين جبل المقطم وكان موضع عسكره وقد روى البلاذرى صاحب كتاب فتوح البلدان أن الزبير هو الذى خطط المدينة واتخذ فيها لنفسه داراً وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور الحصن .

مبايعة عثمان بن عفان

اختار عمر بن الخطاب ستة من خيار الصحابة ليكونوا لجنة الشورى من بعده وهم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص .

وبايع الناس عثمان بن عفان خليفة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وبايعه أيضاً الزبير بن العوام

ولما أقبل أهل الكوفة إلى المدينة وحاصروا عثمان أرسل الزبير ولده البطل عبد الله بن الزبير ليدافع إلى جانب الحسن والحسين عن الخليفة المحاصر - وأراد عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يستخلف الزبير بعده . وقد أصاب عثمان رعاف شديد سنة الرعاف حتى أنه لم يخرج إلى الحج وأوصى وقال فى إستخلاف الزبير بن العوام .

نعم الزبير أما والذى نفسى بيده إنه لخيرهم ما علمت وإن كان لأحبهم إلى رسول الله ﷺ .

بشارة النبي ، للزبير بالجنة

قال رسول الله ﷺ :

« إن لكل نبى حوارىَّ وحواريىَّ الزبيرُ » .

وذكر الترمذى أن علياً رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ بأذنى يقول : « طلحة والزبير جاراى فى الجنة » .

وأخرج الحافظ الدمشقى فى الأربعين الطوال عن عمر بن الخطاب قال : رأيت رسول الله ﷺ وقد نام فجلس الزبير يذب عن وجهه حتى استيقظ فقال له يا أبا عبد الله لم تزل ؟ قال : لم أزل أنت بأبى وأمى يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ: هذا جبريل يقرئك السلام ويقول لك : أنا معك يوم القيامة ، حتى أذب عن وجهك شرور جهنم » .

استشهاد الزبير

كان الزبير بن العوام من المعارضين للإمام على رضى الله عنه وفى موقعة الجمل ناداه الإمام على وَذَكَّرَهُ بما كان بينهما من حب وصلة وود وقرابة وظل الإمام على يَذَكِّرُهُ حتى تعانقا ورجع الزبير بعد أن ذَكَّرَه علىٌّ بحديث رسول الله ﷺ فى الفتنة ولما بلغ الزبير رضى الله عنه وادى السباع رآه عمرو بن جرموذ فمشى وراءه فلما نزل الزبير للصلاة قتله عمرو بن جرموذ وكان عمره لما قُتِلَ سبعا وستين

سنة وقيل ست وستون . رضى الله عن الزبير بن العوام وأحسن إليه جزاء ما قدم .
وكثير من الناس يقولون : إن ابن جرموذ قتل نفسه .
لما قال على : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » .

*****

٥- عمرو بن العاص
داهيـة العـرب

اسمه ولقبه

عمـرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعـيد بن سهم ويكنى أبو عـبد الله وقيل : أبو محمد وأمه النابغة بنت حرمله .

صفاته :

كـان أبوه (العـاص) أحـد أشـراف قـريش وقـد أدرك الإسـلام ولـم يسلم وكانت التجارة هى حـرفة (عمرو بن العاص) فأتاحت له هذه الحـرفة السفر إلى الشام ومصـر والحبشة واليمن وقـد أكسبه هذا السفـر الدائم معرفة عمـيقة بالناس والمجتمعات وأنماط حياتهم وكان لذلك أثره فيما توافر لعمرو بن العاص من الخبرة وبعد النظر وسعة الأفق وكان يتمتع بالشجاعة والإقدام والفروسية .

ويعـد عمـرو بن العـاص أحـد دهاة العـرب وله فى ذلك حسـن التصـرف والخروج من أى مأزق ، حـيث اشتهر أن أكـثر العرب دهاءً كان عـمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سـفيان والمغيـرة بن شعبة فمـعاوية بن أبى سفيـان كانت له القدرة على مداراة الخصوم ، أما عمرو بن العاص فقد كان متفتح الذهن يحسن التخلص من كل مأزق يعرض له ويتعامل مع المواقف الصعبة بهدوء وسرعة بديهة .

عمرو بن العاص والنجاشي

تأخر إسـلام عمـرو بن العاص وكان له مـواقف شديدة على الإسـلام وقد

أرسلت قريش عمرو بن العاص إلى النجاشى ملك الحبشة - حينما هاجر المسلمون إليها فراراً بدينهم - لكى يعطيهم المسلمين ، وأرسلوا مع عمرو الكثير من الهدايا للنجاشى وكان لكثرة تردد عمرو بن العاص على الحبشة بسبب التجارة صلة طيبة بينه وبين ملك الحبشة .

لكن لم يفلح عمرو بن العاص فى إقناع ملك الحبشة بطرد المسلمين من الحبشة .

إسلام عمرو بن العاص

فى إحدى رحلات عمرو إلى الحبشة كان بينه وبين النجاشى حديث طويل جاء فيه ذكر رسول الله ﷺ والدين الجديد وسأل ملك الحبشة عمروا لماذا لم تؤمن حتى الآن وهو رسول من عند الله حقا ورد عمرو :

أو تراه كذلك أيها الملك ؟

أجاب ملك الحبشة : نعم هو كذلك والله .

وعاد عمرو بن العاص وحديث النجاشى يتردد على عقله وقلبه وقد ذهب عمرو بن العاص وخالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ وقال الرسول الكريم لما رآهما قادمين « لقد رمتكم قريش بفلذات أكبادها » .

وقد سئل عمرو بن العاص لماذا تأخر إسلامه فقال :

إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن توازى عقولهم الجبال. فلما بعث النبى ﷺ . رأيناهم ينكرون عليه فلذنا بهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا . ونظرنا وتدبرنا فإذا هو الحق المبين .

إن عمرو بن العاص واحد من أعظم الناس عقلاً ولكن إسلامه هو إسلام العاقل ويقول الرسول ﷺ : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص .

ومنذ أن أسلم عمرو بن العاص نال ثقة الرسول ﷺ .

قدوم عمرو بن العاص إلي عمَان

أرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص إلى والى عمان جيفر وأخيه عبد وبعث

إليهم بكتبه يدعوهم إلى الإسلام وكان (عبد) أحلم الرجلين فلما وصل عمرو بن العاص عمد إلى (عبد) فدفع إليه عمرو كتاب الرسول ﷺ فأعلن إسلامه هو وأخوه جيفر . واستقر عمرو بن العاص فى عمان حتى بلغه وفاة رسول الله ﷺ . ثم عاد إلى المدينة .

وفى خلافة الصديق أرسله أبو بكر رضى الله عنه لقتال المرتدين وجهه إلى قضاعة فسار إليهم وحاربهم حتى قضى على فتنة الردة بأرضهم .

فتح فلسطين

شارك عمرو بن العاص رضى الله عنه فى الفتوحات الإسلامية ، وفى حرب الروم كانت أول موقعة واقعها عمرو بن العاص هى فتح فلسطين ثم فتح غزة ونابلس ورفح ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص نزل عمرو وشرحبيل بن حسنة على أهل بيسان فافتتحاها وسار عمرو إلى أجنادين وكان عليها من الروم حاكم يسمى الأرطبون وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدهم غوراً وانكاهم فعلاً . فلما بلغ عمر الخبر قال : « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج » وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر فى الأرطبون على شئ ولا تشفيه الرسل فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد . ففطن به الأرطبون وقال : لاشك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه.

وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ويقتله إذا مر به وفطن عمرو لفعله فقال له : قد سمعت منى وسمعت منك وقد وقع قولك منى موقعاً . وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب إلى هذا الوالى لنكانفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا الذى عرفته عنك الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ورد الرجل الذى أمر بقتله وقال لعمرو : انطلق وجئ بأصحابك .

فخرج عمرو بن العاص من عنده ورأى أن لا يعود لمثلها ولما هزم الروم ووقع الأرطبون فى أيدى المسلمين أسيراً عرف أن عمروا الذى أتاه هو الأمير فقال: خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق .

فتح بيت المقدس

فى سنة ست عشرة فى ربيع الأول فتح بيت المقدس وفتح عمرو غزة وفتح نابلس ولما دخل إيلياء[1] بلغهم أن أرطبون قال : لا يفتح والله عمرو شيئاً من فلسطين بعد أجنادين . فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب (إنى أعالج عدواً شديداً وبلاداً قد ادخرت لك فرأيك) وقد طلب أرطبون أن يأتى الخليفة بنفسه يتسلم مفاتيح بيت المقدس فلبى عمر بن الخطاب طلبه .

فتح مصر

كان عمرو بن العاص محباً للإمارة طامحاً للعلا ذا نفس عالية لا ترضى بالحقير من الأعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب وترتب عليها من التبعات .

وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب فى قتال ملك الفراعنة بجيش يقل عن الأربعة الآف مقاتل يريد أن يقهر به أمةً كان يربو عددها على العشرة ملايين . إن الذى أطمع عمرواً بمصر ذهابه إليها فى الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات أرضها ولكن إقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل أنه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام أن دولة الروم قد زالت قواها .

وخرج عمرو فى ثلاثة الآف وخمسمائة رجل فأتى العريش ففتحها ثم تقدم إلى الفرما[1] ففتحها ثم دمياط ففتحها ثم بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً وقاتل من بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وانهزم من بقى إلى المقوقس وأحب عمرو بن

(١) اسم مدينة بيت المقدس ، عبدى : قيل معناه بيت الله .
(٢) الفرما : بورسعيد حاليًا .

العاص ملاطفة المقوقس فسير إليه ابنته مكرمة فى جميع ما لها مع قيس بن أبى العاص السهمى فسر المقوقس بقدومها . وكان هذا العمل من عمرو بن العاص يدل على حسن سياسة وبعد نظر .

حصن بابليون

بقى من حصن بابليون إلى نحو أوائل القرن العشرين ما يدل على ما كانت عليه هيئة وعظمة خطره وكان الفضل للقبط فى حفظ تلك البقية إذ إجتمعت لهم كنائس عدة فيه منذ أول عهد النصرانية لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة وموضع هذا الحصن مصر القديمة ويطلق عليه الآن قصر الشمع .

ولكن الحصن خرب تخريباً يرثى له منذ احتلال الانجليز لمصر وبعد أن شعر أهله عند ذلك بالإطمئنان والأمن فقد أصبح الأمن مستقراً لا حاجة معه إلى الأسوار المنيعة وصار القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون فى هدم أسواره .

حصار حصن بابليون وفتحه

كان ذلك الحصن منيعاً ولابد أن تطول بهم مدة حصاره وكان المسلمون فى ذلك الوقت أربعة آلاف رجل أو أقل وأرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . المدد فى اثنى عشر ألف مقاتل معهم الزبير بن العوام ولما علم عمرو بن العاص بقدوم الزبير تلقاه ثم أقبلا يسيران فلم يلبث الزبير أن ركب ثم طاف بالخندق الذى حفره القبط حول الحصن ثم فرق الرجال حول الخندق . وكان الزبير رضى الله عنه من الشجعان المعروفين فقال : إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً على جانب الحصن ثم صعد فأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف فلم يشك الروم أن العرب قد اقتحموا الحصن فهربوا وعمد الزبير وأصحابه إلى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط إلى الجزيرة (جزيرة الروضة) وتم

بذلك فتح الحصن وكان على يد البطل الزبير بن العوام وتحت قيادة عمرو ابن العاص .

فتح الاسكندرية

ثم كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يستشيره فى المسير لفتح الاسكندرية فلما وصلت موافقة الفاروق توجه إلى الاسكندرية وحاصرها وكان الروم قد جمعوا جموعهم فيها فتقاتل الجيشان ثم فتحها الله على المسلمين .

فتح زويلة وطرابلس

لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية سار فى جنده يريد المغرب حتى قدم برقة فصالح أهلها على الجزية . ثم فتح بعدها زويلة وطرابلس ثم جاءته الأوامر بالتوقف هناك وأن يستخلف على ليبيا عقبة بن نافع الفهرى الذى كان قائد الفتح فى بلاد المغرب ، ثم رجع إلى الفسطاط فأقام هناك آثاراً عظيمة يذكرها التاريخ بالفخر والاعتزاز فقد بنى مدينة الفسطاط وجامع عمرو بن العاص وهو أول مسجد بنى فى مصر .

عمرو بن العاص وشعب مصر

لقد فتح عمرو بن العاص قلوب المصريين قبل أن يفتح أرضهم لقد كان يدرك أن مهمة الجيش هى تحرير الناس قبل تحرير الأرض . بل إن أهل مصر كانوا عوناً لعمرو على محاربة الروم . وكان يقول لهم : يا أهل مصر لقد أخبرنا نبينا أن الله سيفتح علينا مصر وأوصانا بأهلها خيراً قال ﷺ : « ستفتح عليكم بعدى مصر . فاستوصوا بقبطها خيراً . فإن لهم ذمة ورحماً » . والقرابة التى بين العرب والمصريين هى من ناحية (هاجر) أم إسماعيل عليه السلام جد العرب .

ولم يسمح عمرو بن العاص بشبر من الأرض لأى جندى من جنوده إلا عن طريق الشراء ولم يكن الفتح إلا عماراً وإزدهاراً وبقى عمرو بن العاص أميراً على مصر فى عهد عمر بن الخطاب وجزءٍ من خلافة عثمان بن عفان .

عزل عمرو بن العاص

تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة وكانت الحروب ضد الروم تستلزم أموالاً كثيرة وكان خراج مصر فى تناقص مستمر فعزل عثمان عمرو بن العاص من ولاية مصر .

وقد تألم عمرو ألماً بالغاً لعزله عن منصب كان يرضى طموحه .

قتل عثمان بن عفان وخلافة علي

قتل الخليفة عثمان بن عفان وآلت الخلافة إلى على بن أبى طالب واستطاع القضاء على بعض حركات التمرد ولو أن علياً ترك معاوية على ولاية الشام لما حدث الخلاف بينهما ولما أعلن معاوية استقلاله بولايته . ولقد أفاد عمرو بن العاص معاوية بدهائه حيث أتى بمكيدتين : المكيدة الأولى فى معركة صفين ، وهى إشارته برفع المصاحف فى وجوه أصحاب على و أما المكيدة الثانية فهى خداعه لأبى موسى الاشعرى يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه فخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه .

اتفاق عمرو ومعاوية

فى معركة صفين هال علياً كرم الله وجهه أن تراق دماء المسلمين وأن يرى جثث المسلمين تملأ أرض المعركة فخرج إلى ساحة القتال ونادى على معاوية يا معاوية علام يقتتل الناس هل نتبارز فيكون الأمر لمن غلب فقال عمرو : والله لقد أنصفك الرجل فأقسم معاوية على عمرو بن العاص أن يخرج إلى مبارزة على بن أبى طالب فلبى الأمر ونزل إلى ساحة القتال وهو يعرف مقدرة علىّ فى استخدام السيف إلا أن عمرو بن العاص كان يعرف كيف يحسن الخروج من أى موقف وما كاد يواجه ابن أبى طالب حتى سقط على الأرض وأبدى عورته وهو يعلم أن علياً قد كرم الله وجهه عن النظر إلى عورات المنهزمين ونجا عمرو بن العاص من الموت بهذه الحيلة .

واشترط عمرو على معاوية أن تكون ولاية مصر هى ثمن مؤازرته ونصرته له

على عليٍّ وكان لعمرو دور كبير في ذلك فقد وقف إلى جانب معاوية في معركة صفين .

عودة عمرو بن العاص إلى مصر

عاد عمرو بن العاص إلى مصر مرة أخرى والياً عليها وكان يحرص على بناء ما تهدم في عهد من قدم بعده في خلافة عثمان وعلى رضى الله عنهما .

وفي آخر أيامه كان عمرو يقول داعياً :

اللهم قد آتيت عمروا مالاً فإن كان أحب إليك أن تسلبه ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله وآتيت عمروا أولاداً فإن كان أحب إليك أن تُفْقِد عمروا ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده . اللهم إنك آتيت عمرواً سلطاناً فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار .

وكان يقول على فراش الموت .

اللهم لست بالقوى فانتصر ولا بالبرئ فأعتذر ولست متكبراً ولكن مستغفراً لا إله إلا أنت .

ولكن حكمة الله شاءت أن يكون مثوى عمرو الأخير على أرض مصر . التى فتحها وبنى أول مسجد على أرضها .

٦ ـ عقبة بن نافع الفهرى
فاتح إفريقية

نشأته

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الظرب بن الحارث بن فهر الأموى القرشى الفهرى وأمه سبية من قبيلة عنزة اسمها النابغة وبينه وبين عمرو بن العاص قرابة من ناحية الأم . ويلتقى نسبه رضى الله عنه بنسب رسول الله ﷺ فى فهر بن مالك .

ولد عقبة بن نافع فى مكة قبل الهجرة بسنة واحدة فنشأ على الفروسية ومظاهر البطولة والشجاعة وبنو فهر معروفون بالشجاعة والفروسية ولهم تاريخ مشرف فى الحروب والمعارك وكان عقبة بن نافع مثالا للمسلم المؤمن الشجاع الحزم جعل حياته كلها للجهاد فلم يهتم بجمع المال أو الغنائم وعمل على نشر الإسلام فى مناطق كثيرة من إفريقية وكان شديد التدين وعرف عنه الإقبال على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولما كلف عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بفتح الشام جعل عمرو بن العاص عقبة بن نافع على مقدمة الجيش .

وأظهر عقبة بن نافع شجاعة عالية فى اقتحام صفوف الأعداء وقتل الكثير منهم .

فتح مصر وليبيا

رغم أن جيش عمرو بن العاص كان قليل العدد إلا أنه استطاع أن يهزم الروم وكان معه عقبة بن نافع الذى أظهر مقدرة عالية فى قتال الأعداء وكان له دور

كبير فى هذا الفتح وقد اكتسب عقبة بن نافع من معارك فتح مصر خبرة فى إدارة القتال من عمرو بن العاص القائد الكبير وعندما وصل عمرو بن العاص إلى الاسكندرية أراد تأمين حدود مصر من جهة الغرب حتى لا يعود الروم مرة أخرى لغزو مصر وفى سنة إحدى وعشرين سار عمرو بن العاص وعقبة بن نافع على رأس جيش إلى برقة فافتتحها عمرو بن العاص صلحاً على الجزية وقد تمثل هذا النجاح فى أن استتب الأمن ثم بدأ التمهيد لافتتاح إفريقية بالاستيلاء على المناطق الداخلية فى برقة وطرابلس الغرب فاستولى المسلمون على ودان وصبرة وقاد عقبة بن نافع المسلمين فأحرز انتصارات هامة وافتتح زويلة صلحاً .

وكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه « أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى أمر المغرب فبلغ (زويلة) وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلميهم الصدقة وأقر معاهدتهم بالجزية » .

واستأذن عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب فى متابعة الفتح وانتظر رأى عمر بن الخطاب وكان رأى عمر هو عدم التوغل فى إفريقية ورأى أن المسلمين فى حاجة إلى فترة هدوء ليثبتوا أقدامهم وحتى يزيد عدد الجيش فيستطيع قتال القبائل الكثيرة الموجودة بالصحراء .

ورجع عمرو بن العاص إلى مصر ولكنه أمر عقبة بن نافع بأن يقيم فى برقة حتى يعلم المسلمون أمور الدين واستطاع أن يعلم البربر أمور وقواعد الدين حتى أسلم على يديه الكثير من البربر وظل فى برقة أربع سنوات .

لما تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكتب عبد الله بن سعد يستأذن الخليفة فى فتح إفريقية فشجعه عثمان بن عفان على فتح إفريقية وفى سنة ست وعشرين سار ابن سرح إلى برقة وكان معه جيش بلغ تعداده عشرين ألف رجل والتقى بعقبة بن نافع ومن معه من المسلمين فى برقة فساروا جميعاً إلى طرابلس

الغرب فتصدى لهم جيش الروم بقيادة (جرجير) فانتصر المسلمون عليهم فى سبيطلة ورجع عبد الله إلى مصر وأقام عقبة بن نافع فى برقة وبذلك انتزع من الروم فكرة تهديد المسلمين وشهد عقبة بن نافع جميع فتوحات ابن أبى سرح فى إفريقية وظل عقبة يحمى البلاد من هجمات الروم فيتصدى لهم ويقاتلهم فى البر والبحر .

وعندما بدأ الخلاف بين على ومعاوية فترت حرارة الجند فى كل الدولة الإسلامية وانصرف المسلمون عن الفتح .

وانتهى الأمر عام الجماعة إلى تولية معاوية بن أبى سفيان الخلافة وتولى عمرو بن العاص ولاية مصر للمرة الثانية وأراد عمرو ابن العاص أن يستمر فى الفتوحات التى بدأها فى برقة ورأى أن خير من يقوم بهذه الفتوحات هو عقبة بن نافع وكان عقبة بن نافع ما يزال على حامية برقة وقد أكسبته هذه الإقامة الطويلة خبرة بطبيعة أهل المنطقة وبشئون القبائل البربرية .

واستدعى عمرو بن العاص عقبة بن نافع ليتولى قيادة الجيش الذى سيتم إرساله إلى برقة لاستئناف الفتوحات فى هذه المنطقة .

عقبة يواصل الفتح

سار عقبةُ إلى بعض قبائل البربر الذين نقضوا العهد وأظهروا العصيان فقاتلهم عقبة وألحق بهم شر هزيمة فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم فأبى عليهم ذلك لأنه تبين فى أعمالهم الغش والخداع وقال لهم إنه ليس لمشرك عهد وإن الله عز وجل يقول فى كتابه : « كيف يكون للمشركين عهد » .

وفى سنة اثنتين وأربعين سار إلى مدينة غدامس غربى سرت ففتحها وأشاع فى قلوب أهلها الرعب حتى لا تحدثهم نفوسهم بالثورة والتمرد واستخلف فيها عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى .

واتجه إلى قبيلة ودان وكانت قد ارتدت عن الإسلام بعد أن ترك المسلمون القبيلة فحاربهم عقبة حتى أخضع القبيلة وحاولت القبيلة صد المسلمين ولكن عقبة

والمسلمين هزموهم وأسـروا ملكهم ودفع الجزية ملك ودان وأكـد أنه لن يعود إلى عدم دفع الجزية ومحاربة المسلمين .

ثم اتجه إلى فزان وكان ملك فزان وثنياً لا يؤمن بالله واستطاع عقبة أن يخضع فزان وأن تدفع الجزية ومقـدارها ثلاث مائة وستون بعيراً وكان عـقبة بن نافع يترك فى كل قرية أو مدينة بعد فتحها مـجموعة من المسلمين يعلمون أهلها قواعد الدين وأحكامه واللغة العربية ولذلك ازداد عدد المسلمين .

عبقرية عقبة العسكرية

أطمـأن عقـبة بن نافـع إلى ما تحـقق من نصر بـعد فـتح بلاد فزان وكـان من الطبـيعى أن يلجـأ إلى الراحـة والهـدوء بعض الوقت ولكن عـقـبـة رفض ذلك وتأهب لمعركـة من أخطـر المعارك حيث تقع بلاد « كاوار » فسار إلى مدينة خاوار عاصمة هذه البلاد وكانت خاوار تقع على جبل مرتفع وفى مقدرة أهل المدينة صد العدو إذا حـاول تسلق الجبل ولكن عقـبة استطاع أن يصـل إلى أسوار المدينة رغم كل هذه الصعوبات ودعا أهلها إلى الإسلام فأبوا وطلب الجزية فامتنعوا وأقام على حصارها شهراً كاملاً دون فائدة ولما تبين له أن دخول المدينة أصبح مستحيلاً تراجع عقـبة بجيشـه وغاب عن المدينة ثلاثة أيام حتى آمن أهلهـا وفتحوا أبواب الحـصون وأبواب مدينتهم مطمئنين وكان عقبة قد عرف أن هناك طريقاً آخر لهذه المدينة تقيم بعض القبائل على جانبه وأراد إخضاع هذه القبائل ثم دخول المدينة .

سار عـقبة وأخضع القـبائل الموجودة على جـانبى الطريق ولكن هذا الطريق كان مقفرا لا ماء فيه وأصاب الجيش عطش شديد كاد أن يقتل عقبة وجيشه .

وكان عقـبةُ قوى الإيمانِ بالله تعالى فـصلى ركعتين ثم أخذ يدعـو الله وماكاد يفرغ من الدعاء حتى التفت فوجد فرسه ينبش الأرض حتى حدثت المعجزة وتفجر الماء من تحت صخرة .

ونادى عقبة فى الجند وأمرهم أن يحفروا سبعين حفرة فشربوا جميعاً وسقوا خيولهم فسمى ذلك المكان لذلك (ماء فرس) .

وكانت عودة عقبة إلى خاورا مفاجئة إذ دخل المدينة ليلاً وأهلها مستغرقون فى النوم فقد طبق بهذه الخطة مبدأ من مبادئ العسكرية وهو مبدأ المباغتة ودخل من طريق غير الطريق الذى أقبل منه عليها أولاً .

وكان قد تغلب عقبة على مدينة خاورا بقوات قليلة خفيفة لأن الحركة فى الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة وذلك لقلة المياه فيها

بناء القيروان

وعند موضع القيروان (الآن) نزل عقبة بجنده وكان موضعها واديا فيه من أنواع السباع والأفاعى والحشرات الكثيرة وأمر عقبة بأن يطهر الجند المكان من الأفاعى والسباع والحشرات وأن تقطع الأشجار وأمر ببناء القيروان وبنى المسجد الذى يطلق عليه اسم جامع عقبة بن نافع وقد استغرق العمل فى القيروان نحواً من أربع سنوات وازدهرت المدينة بسرعة فائقة ساعد عليها الموقع الجغرافى وكانت على امتداد الخط البرى الذى يصل بينها وبين مصر .

وأصبحت القيروان مركز تجمع لجيوش المسلمين يتدربون على فنون الحرب وتنطلق منها الجيوش إلى المهام العسكرية .

وأتم عقبة بناء القيروان سنة خمسة وخمسين للهجرة ودخل كثير من البربر فى الإسلام وبعد هذا الاتساع قال عقبة لرجاله :

« إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » .

عزل عقبة بن نافع

فى سنة خمس وخمسين من الهجرة عين معاوية بن أبى سفيان خليفة المسلمين مسلمة بن مخلد الأنصارى والياً على مصر والمغرب وعزل عقبة بن نافع فعمد مسلمة إلى تعيين مولى له هو أبو المهاجر بن دينار فلما استلم أبو المهاجر

منصبه أساء وغزل عقبة وسجنه وكبله بالحديد وكان أبو المهاجر قد أمر بنقل المسلمين من مدينة القيروان إلى قرية تسمى دكرور قريبة من القيروان ولم يكن عزل عقبة عن إفريقية لذنب اقترفه أو تقصير ولكنه كان مكافأة لمسلمة بن مخلد وأبى المهاجر بن دينار تقديراً لهما على توطيد أركان الحكم الأموى وما إن عرف معاوية بن أبى سفيان بما حدث لعقبة حتى أمر بإطلاق سراحه .

ودعا الله عقبة وقال « اللهم لاتُمتْنِى حتى تمكنى من أبى المهاجر ابن دينار » واعتذر له معاوية عما فعله مسلمة بن مخلد الأنصارى وعكف عقبة بن نافع على التفقه فى الدين وهو بعيد عن قيادة جيش إفريقيا مدة سبع سنوات حتى توفى معاوية وتوفى مسلمة بن مخلد .

عودة القائد

وبعد وفاة معاوية خلفه ابنه يزيد فأمر بإعادة عقبة إلى قيادة الجيش فى إفريقية . وما إن تولى قيادة الجيش حتى أمر بوضع القيد فى يدى أبى المهاجر بن دينار وأمر بترحيله إلى القيروان .

أشهر معارك عقبة

وبدأ عقبة بتنظيم جيشه حتى أصبح الجيش مستعداً للغزو والفتح وانطلق الجيش إلى الزاب وكان عقبة يقود الجيش وكانت الأخبار قد وصلت إلى مدينة الزاب فاحتشد أهلها وعزموا على قتال المسلمين والتقى جيش المسلمين مع جيش الروم والبربر وكان التحاماً عنيفاً وخرجت النساء يشجعن المقاتلين وأراد الروم والبربر الهروب والاعتصام بالمدينة ولكن عقبة تبعهم إلى المدينة وأصبح الروم والبربر محصورين بين المسلمين وطلبوا الأمان وأخذ المسلمون الجزية ثم اتجه عقبة إلى مدينة تازولت واستطاع أن يلحق بهم هزيمة قاسية وفرض عليهم الجزية .

وبدأ عقبة بن نافع يستعد لمعركة حاسمة وسار إلى أدنة عاصمة الزاب وقد عرف الروم والبربر بزحف عقبة فاحتشدوا خارج المدينة وهم يعلون مدى خطورة

المعـركة وأخـذت النسـاء يشـجعن الجـنود والرجال علـى قتـال المسلمين والتـحم الجيشان وكان القـتال شديداً وأبدى المسلمون كل كفاح وشجـاعة حتى فر الأعداء هاربين إلى مدينتهم وغنم المسلمون الكثير فى هذه المعركة .

وقد أصـبح الطريق مفتوحـاً أمام عقبـة بن نافع إلى طنجة واستطاع حـصار طنجـة بضعـة أيام وإعلان مـلكها فطلب الأمـان ودفع الجـزية وخرج ملك طنجـة واسمه يليان لاستقبال عقبة بن نافع . وأمر عقبة الجيش بالتوجه إلى السوس الأدنى وسرعان مـا هزم المسلمون البربر واقتـحموا مدينتهم وغنمـوا منها مغانم كـثيرة ثم اتجه إلى السـوس الأقصى وحشـد البربر حشـوداً عظيمة وانتـهت المعركة بسـقوط وسط المغرب الأقصى .

استشهاد عقبة

ثم انطلق عقبة من نصر إلى نصـر رافعاً راية الإسلام حتى وصل إلى شاطئ المحيط الأطلنطى ثم نظر للمـحيط وقال « اللهم لو أعلم أن وراء هذا البـحر أرضاً لخضته غازيا فى سبيلك أقـاتل من كفر بك حتى لا يُعَبَد أحد من دونك » . ثم كر راجعاً إلى القيـروان وأرسل معظم جيشه إلى القيروان وأبقى مـعه حوالى ثلاثمائة فارس واتجـه إلى مدينة تهـوده وسرعـان ما علم البربـر أن عقبـة قد صـرف معظم جيـشه وبقى معـه عدد قليل من الفرسـان فجمع رجل - يدعى كـسيلة - أهلهَ وبنى عمه وقصد عـقبة فلما علم عقبةُ بذلك تقدم هو وثلاثمائـة من جنوده لقتال كسيلة بن لمزم ومن معه فظلوا يقاتلون ويقاتلون حتى استشهد عقبة بن نافع وأنشئ هناك مسجد يعـرف باسم مسجد عقبة بن نافع ذلك الشهـيد الذى عمل على إعلاء راية الإسلام فى الشمال الإفريقى حتى المحيط الأطلنطى .

٧ـ أسامة بن زيد
أصغر قائد فى الإسلام

نشأتـــه

هو أسـامـة بنُ زيد بن حـارثة الكلـبىُّ أمـه أم أيمن حـاضنة النبى ﷺ وكـان يسمى: حِبَّ رسول الله .

روى ابن عمر أن النبى ﷺ قال (إن أسامة بن زيد لأحب الناس إلىَّ ، أو من أحبِّ الناسِ إلىَّ ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً » .

ويقــول رسـول الله ﷺ عن أم أيمن « أُمُّ أيمنَ أُمـى بعـد أمى » وذلك لأنـهـا أشرفت على تربية ورعاية الرسول الكريم ﷺ بعد أن ماتت أمه آمنة بنت وهب .

زيد بن حارثة

أغارت إحدى القـبائل فى الجاهلية على بنى مـعن (قوم زيد) وأسرت زيد بن حارثة مع من أسرت ثم عـرضوا هؤلاء للبيع فى سوق عكاظ وكـان زيد غلاماً صغيراً فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد زوج النبى ﷺ ورضى الله عنها وقررت أن تقدم الغلام هديةً لزوجها محمد بن عبد الله وما إن علم حارثة أبو زيد بما وقع لابنه حتى حزن عليه أبلغ حُزْن .

وتعلق زيد بن حارثة برسـول الله محمـد بن عبد الله ﷺ تعلقـاً شديداً لما رآه من صفات طيبة فى رسول الله ﷺ .

وفى مـوسم الحج حج قـوم من بنى كـلب وهم قـبـيلةُ زيد فـرأوا زيداً بمكَّةَ وسرعان ما عـرفهم وعرفوه ولما غادروا مكة عائدين إلى قومهم أخـبروا أباه فخرج

حارثة وأخوه كعب إلى مكة فدخلا على محمد بن عبد الله يقولان له : « يا ابن عبد المطلب يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه أنتم أهل حرم الله تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا عندك ، فامنُنْ علينا وأحسنْ فى فدائه فإننا سنرفع لك فى الفداء » .

قال لهم رسول الله : « من هو ؟ » قال الرجلان زيد بن حارثة نريد افتداءه .

قال رسول الله : ادعوه فخيروهُ ، فإن اخْتَاركم فَهُوَ لكُمْ بغير فداء وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً » قال الرجلان : قد زدتنا فى النَّصَف وأحسنتَ .

وأمر محمد ﷺ باحضار زيد فجاء زيد فعرف أباه وعمه فقال رسول الله ﷺ لزيد : « فأنا مَنْ قد عَلِمْتَ ورأيتَ صُحبتى لَكَ ، فاخْتَرْنى أو اَخْتَرْهما » فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً

أنت منى بمكان الأب والعم . فقال أبوه وعمه : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك فقال لهما زيد : نعم إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً فما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

وذلك لأن زيداً لقى من محمد ﷺ صدقه وأمانته وكرمه وحسن رعايته ما جعله يفضل البقاء معه على أن يعود إلى قومه ، وخرج محمد ﷺ بزيد إلى حجر إسماعيل وقال : « اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى » وعند ذلك ظهر السرور والفرح على وجه حارثةَ وكعب وطابت نفساهما وانصرفا . فكان زيد يدعى بعد ذلك زيد بن محمد حتى بعث محمد ﷺ ونزلت الآية الكريمة ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقْسَطُ عند الله ﴾ فأصبح يدعى زيد بن حارثة .

إسلام زيد بن حارثة

كان زيد رابع من أسلم بعد خديجة ،أبو بكر وعلى بن أبى طالب ولما أذن الرسول الكريم بالهجرة إلى المدينة ، هاجر زيد إليها فآخى الرسول ﷺ بين حمزةَ

وزيد وشهد زيد بن حارثة بدراً مع رسول الله ﷺ وهـو الذى كان البشير إلى المدينة بالظفر والنصر ، وزوجه رسول الله ﷺ أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ فولدت له أسامةَ بن زيد كمـا تزوج زيد زينب بنت جـحش وهى ابنة عمة رسـول الله ﷺ وهى التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن أبطل الله التبنى .

وشهد زيد بعد بدر أحداً والخندق والحديبية . قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حـارثة فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو بقى لاستخلفه بعده .

ولما سير رسـول الله ﷺ الجيش إلى الشام فى سرية مـؤتة جعل زيد بن حارثة أميراً عليهم وقال : فإن قتل زيد فجعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة » واستُشْـهِدَ زيدٌ فى قتال الروم فى مؤتة من أرض الشـام واستُشْهِدَ جـعفر بن أبى طالب واستشهد عبد الله بن رواحة وبعد أن أُستشهد القواد الثلاثةُ استطاع خالدُ بن الوليد أن ينقذ الجيش ويعودَ به إلى المدينةِ ، وحَزِنَ أسامةُ بن زيدٍ على استشهاد أبيه حُزْناً شديداً .

أسامة في رعاية الرسول

عاش أسـامة فى رعـاية الرسول ﷺ وكـان يطلق عليه حـبُّ رسولِ الله وابن حِبِّه وبـلغ حُبُّ النبى الكريم لأسامة أنه كان يركـب خلفه علىَ البغلة البيـضاء فى فتح مكة .

روت عائشـة رضى الله عنهـا : أن قريشاً أهـمهم شأن المـرأة المخزوميـة التى سرقت ، وتملكهم الرعب والخـجل من أن تُقْطَعَ يدها ، تنفيذاً لحَـدِ الله ، وتشاوروا فيما بينهم : مـن يجسر على مفاتحة النبى ﷺ فى هذا الأمر ، لعـله يعفو ويصفح ؟ وأخيـراً استقر رأيـهم على أن يعهدوا إلى أسـامة بن زيد أن يتشـفع لهذه المرأة عند النبى ﷺ لثقتهم أن النبى لا يرد طلباً لأسامة .

وطلب أسـامة من النبى ﷺ أن يصـفح عن المرأة ولكن الرسول ﷺ قـال فى

غضب « أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ! » وهنا يخطب الرسول ﷺ فى الناس فيقول : - ﷺ -

« إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد ﷺ يدها » .

بطولة أسامة

أقبل أسامة بن زيد يوم أحد يريد القتال مع المسلمين وهو ابن أربع عشرة سنة فرده الرسول ﷺ لصغر سنه وشهد غزوة الخندق وقد بلغ أسامة الخامسة عشرة من عمره ثم شهد أسامة الغزوات الأخرى تحت لواء الرسول ﷺ وشهد غزوة مؤتة تحت لواء أبيه زيد بن حارثة .

وفى يوم حنين تحرك جيش المسلمين من مكة ونظر المسلمون إلى عددهم والسلاح وأدوات الحرب التى معهم فأخذهم الزهو بهذا الجيش الكبير بكثرة الرجال والسلاح وعندما بلغ المسلمون وادى حنين انهالت عليهم النبال من كل اتجاه وقد أبلى أسامة يوم حنين بلاءً حسناً وثبت مع أحد عشر مؤمناً حين تقهقر المسلمون إلى الوراء على أثر هذه المفاجأة واستطاع الرسول ﷺ أن يجمع الجيش من جديد وأن يعود المسلمون إلى القتال وكان التحام الفريقين عنيفاً واستطاع المسلمون هزيمة العدو .

وكان أسامة بن زيد فى السادسة عشرة من عمره واستطاع أن يثبت أمام هذه المفاجأة مع أحد عشر مؤمنا قرروا ألا يتقهقروا ومنهم أبو بكر وعمر والعباس عم النبى وعلى بن أبى طالب وأسامة بن زيد رغم صغر سنه .

النبي يولي أسامة أمر الجيش

ترك أمر شجاعة أسامة يوم حنين أعظم الأثر فى نفس النبى ﷺ وأمام ثبات وعزم أسامة قرر النبى ﷺ أن يتولى أسامة أمر الجيش ، وكان النبى ﷺ يفكر فى

غزو الـروم وكان الروم يتـربصون بالمسلمين فـرأى النبى ﷺ أن يبعـث جيشـاً إلى الروم ولـم ينس استشـهاد كل من زيد بن حارثة وجعفـر بن أبى طالـب وعبد الله بن رواحة فى غـزوة مؤتة . ففى السنة الحادية عـشرة من الهجرة أمـر الرسول بتجـهيز جيش عظيم كان فيه كبار الصحابة أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة ابن الجراح رضى الله عنهم وجـعل قيادة الجـيش فى يد أسامة بن زيد وكان أسـامة عمره فى ذلك الوقت فى العشرين من عمره .

وتأخر تجـهيز الجيش لمرض الرسـول ﷺ فخرج الرسول الكريم إلى المسـجد عاصباً رأسه وخطب فى المسلمين قائلاً :

« أيها الناس أنفذوا بعـث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى إمـارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة ، وإن كان أبو لخليقا بها » .

عاد الرسـول ﷺ بعد أن ألقى هذه الخطبـة إلى بيت عائشـة يوم السبت وفى يوم الأحـد اشتـد المرض بالرسول ﷺ وجـاء أسامـة إلى بيت الرسول من مـوضع الجرف حيث عسكر الجيش فوجـده لا يتكلم وهنا انحنى أسامة حتى قبله النبى ﷺ فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة فعرف أسامة أنه يدعو له .

ولكن الرسول الكريم لحق بربه قبل أن ينطلق أسامة إلى لقاء الروم .

في خـلافة أبي بكـر

بعد موت الرسول الكريم ﷺ ، تردد المسلمون فى إرسـال جيش أسامة فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه « والذى نفـسى بيده لو ظننت أن السبـاع تتخطفنى لا نفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله ﷺ » .

ورغم أن موقف أبى بكر كـان صريحاً وقـاطعاً فى إرسال جيش أسـامة إلى الروم ، فـإن الأنصـار ذهبـوا إلى عـمـر وطلبـوا منه أن يذهب إلى أبـى بكر وينقل رغبـتهم فى تـعيين قـائد للجيش أكـبر سناً من أسـامة بن زيد . ولما سـمع أبو بكر رسالة الأنصار من عمر ، ثار أبو بكر رضى الله عنه وأخـذ بلحية عمر وقال له وهو

غـاضب : « ثكلتك أمك يا ابـن الخطـاب إسـتعـمله رسـول الله ﷺ وتأمـرنى أن أنزعه ؟!! » .

وهنا أعلن أبو بكر أنه سيتبع كل أوامر الرسول ﷺ . فلا مجال للجدال فيما أمر به الرسول ﷺ .

وصية أبي بكر للجيش

أمر أبو بكر بتـجهيز الجيش للـغزو ، ولما أكمل الجيش عدده وعـدته بالجرف راح أبو بكر يودع جيـش أسامة مـاشياً وأصـر على بقاء أسامـة راكبـاً ليزيد الناس لإمارة أسامة إذعـاناً وتسليما فقال أسامة : يا خليـفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، فـقال أبو بكر : والله لا تنزل ووالله لا أركـب ، ومـا على أن أغـبر قـدمى ساعـة فى سبـيل الله ! فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سـبعمائة حـسنة تكتب له وسبعـمائة درجة ترفع له وسبعمائة سيئة تمحى عنه » .

ولما أراد أبو بكر أن يرجع قال لأسامة : إن رأيت أن تعيننى بعمر فأفعل فأَذِنَ له . وقـبل أن يعـود أبو بكر إلى المدينة ، وقف فى جـيش أسـامة يقـول : « يا أيهـا الناس ، أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفـلاً صغيراً ولا شيخـاً كبيراً ، ولا امرأة ولا تعـقروا نخلاً ولا تحرقـوا ولا تقطعوا شجـرة مثمرة ، ولا تذبحـوا شاة ولا بقرة ولا بعـيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تُقْـدِمُون على قوم يأتـونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منهـا شيئا بعد فـاذكروا اسم الله عليه وسـتلقون أقوامـاً قد فحـصوا أوساط رءوسـهم وتركوا حولها . مثل العصائب ، فاخفـقوهم بالسيف خفقاً . إندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون » .

أسامة يثأر للمسلمين

سار أسـامة فى ثلاثة آلاف من المقاتلين المؤمنين حـتى وصل إلى البلقاء التى دارت فيها المعركة التى استشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر ابن أبى طالب وعبد الله

بن رواحة واستطاع فيها أن يعود خالد بن الوليد بالجيش إلى المدينة بعد أن تكسرت تسعة أسياف فى يده وهو يقاتل .

وبعد عشرين يوماً من مسيرة أسامة نزل بجيشه إلى القرى التى حددها له الرسول ﷺ وأبو بكر وقاتل الكثير من أهلها تلك القرى التى ساندت الروم على جيش المسلمين فى معركة مؤتة ولقد نفذ أسامة أمر رسول الله ﷺ وَأَمْرَ خليفة رسول الله بعده وعاد إلى المدينة بعد سبعين يوماً من مغادرته لها ـ ودخل أسامة المدينة ممتطياً الفرس الذى استشهد عليه أبوه زيد بن حارثة يوم مؤتة .

لقد استطاع أسامة أن ينتصر دون أن يفقد رجلاً واحدا إذ كان رسول الله ﷺ يقول عنه : إنه لخليق بالإمارة ...

عمر يكرم أسامة

لما أراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه توزيع الأنصبة من بيت المال فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف درهم بينما فرض لابنه عبد الله بن عمر ألفى درهم ، فقال ابن عمر : فضلت على أسامة وقد شهدت ما لم يشهد ؟

فقال عمر : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ، وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك » .

لقد كان أسامة موضع ثقة الناس وإجلالهم ، شجاعاً مقداماً راجح العقل شديد الورع ، واسع العلم بأمور الدين ، يستفتيه الناس فى أمور دينهم ، كما روى عن الرسول ١٢٨ حديثاً .

عاش أسامة بعد رسول الله ﷺ فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية . فقد كان محبوباً من جميع الخلفاء .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما كنت لأحيى أحداً بالإمارة غير أسامة ، لأن رسول الله ﷺ قبض وهو أمير .

وفاة أسامة

بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل أسامة الناس وعكف على العبادة والصلاة ولم يتدخل فى الفتن بعد مقتل عثمان وفاء لعهده الذى قطعه على نفسه ألا يقاتل من يقول « لا إله إلا الله » .

وتوفى آخر أيام معاوية سنة أربع وخمسين من الهجرة بالجرف ، وحمل إلى المدينة ودفن بها . رضى الله عن أسامة بن زيد .

وعن أبيه زيد بن حارثة وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ .

٨ ـ سعد بن أبى وقاص
قاهر الفرس

اسمه

هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ، ويجتمع مع النبى ﷺ فى كلاب بن مرة وأهيب بن عبد مناف جد سعد وعم آمنة بنت وهب أم النبى ﷺ .

وكان يكنى أبا إسحاق .

إسلام سعد بن أبي وقاص

كان سعد من السابقين الأولين الذين دخلوافى الإسلام ، وكان عمره سبع عشرة سنة ولعل معرفته برسول الله ﷺ جعلته يلبى دعوته ويسرع إلى الإيمان بالدين الجديد وكان سعد معروفاً بين الناس بوفائه لأمه وعلمت أمه بإسلامه وكانت تعرف حقيقة شعور ابنها من ناحيتها ومدى تعلق سعد بها وحاولت الأم أن ترده عن دين التوحيد فلم تفلح ، فهددته بأنها ستمتنع عن الطعام والشراب حتى يعود إلى الكفر خوفاً على حياتها .

وأضربت أمه عن الطعام والشراب حتى أوشكت أن تهلك جوعاً وعطشاً وعندما أشرفت على الموت دعاه بعض أقاربه ليرى أمه حتى يَرِقَّ قلبه ، ولكن سعداً صاح فى أمه : « تعلمين والله يا أمه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دين محمد ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى » .

ولما رأت أم سعد إصراره أكلت وشربت ونزل قول الله تعالى ﴿ ووَصَّيْنَا الإنْسَانَ بوَالدَيْه حُسْنَاً وَإنْ جَاهَدَاكَ لتُشْركَ بى ما ليس لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطعْهُمَا إلىَّ مَرْجعكُمَ فَأُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

نشأ سعد على البطولة والشجاعة فى الحرب ولم يتخلف عن غزوة من غزوات النبى الكريم ﷺ وقف سعد يرمى المشركين يوم أحد وكان رسول الله ﷺ يقول له :

« إرم سعد فداك أبى وأمى » وكان الرسول الكريم يدعو له قائلاً : « اللهم سَدِّدْ رَمْيَتَهُ وأَجِبْ دَعْوَتَهُ » .

هو أول من أسال دماً للأعلاء فى الإسلام وأول من رمى بسهم فى الإسلام .

يروى ابنه عامر هذه القصة فقال : رأى سعد رجلاً يسب علياً وطلحة والزبير فنهاه فلم ينته ، فقال له سعد : إذن إدعو عليك ، فقال الرجل : أراك تَتَهَّددُنى كأنك نبى ، فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال « اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواماً قد سبقت لهم منك الحسنى وأنه قد أسخطك سَبُّهُ إياهم ، فاجعله آيةً وعبرة » فلم يمض غير وقت قصير حتى خرجت من إحدى الدور ناقةٌ شاردةٌ ، لا يردها شئ حتى دخلت فى زحام الناس ، ثم وصلت إلى الرجل ، فأخذته بين قوائمها ومازالت تتخبطه ، حتى مات .

وكان سعد من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وتقول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، سهر رسول الله ﷺ ، مقدمه المدينة ليلة ، فقال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة » . قالت : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح . فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبى وقاص يارسول الله فقال رسول الله ﷺ ماجاء بك ؟ فقال : وقع فى نفسى خوفٌ على النبى ﷺ فجئتُ أَحْرُسُهُ . فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام .

سعد أحـد العشرة المبشرين

دخل رسول الله ﷺ منزل عائشة فقـال : « يا عائشة ألا أبشرك ؟ قالت : بلى يا رسول الله .. قال : أبوك فى الجنة ورفـيقه إبراهيم .. وعمر فى الجنة ورفـيقه نوح .. وعثمان فـى الجنة ورفيقه أنا .. وعلى فى الجنـة ورفيـقه يحيـى بن زكريـا .. وطلحة فى الجنة ورفيقه داود ..والزبير فى الجنة ورفيـقه إسماعيل .. وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ورفيقه سليمان بن داود .. وسعيد بن زيد فى الجنة ورفيقه موسى بن عمـران .. وعبد الرحمن بن عوف فى الجـنة ورفيقـه عيسى ابن مريم .. وأبو عبيـدة بن الجراح فى الجنة ورفيقه إدريس عليه السلام ..

ثم قـال : يا عـائشة أنا سيـد المرسلين .. وأبوك أفـضل الصـديقين وأنت أم المؤمنين » .

ويقـول أنس بن مالك .. وعمرو بن العاص .. وعبد الله بن عمر :

كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : « يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فليس منا أحد إلا وهو يتمنى أن يكون من أهل بيته .. فإذا سعدٌ قد طلع » .

موقعة القادسـية

عندمـا تولى الخـلافـة « عـمـر بن الخطاب » ، أراد الفـرس ، أن يجـمـعـوا جمـوعهم لينقـضوا على المسلمين وقـرر عمر أن يخـرج بنفسـه على رأس الجيش ولكن أصـحاب الرأى والمشـورة رفـضوا خـروجـه ، وأقنعوه بالبـقـاء فى المدينة ، وانتـهى الرأى إلى اختـيار قـائد آخر لمـواجهـة الفرس ، وسـأل عمـر أصحـابه من تختارون ، فقال عبد الـرحمن بن عوف : « إنه الأسد فى برائنه ، وإنه سعد بن أبى وقاص » .

فولى عـمر بن الخطاب سعـد بن أبى وقاص إمـارة الجيش ثم أخذ عـمر بن الخطاب يوصى سعدا قائلاً :

« إنى ولَّيتُك حرب العـراق ، فاحـفظ وصيـتى فإنك تقـدم على أمر شـديدٌ

كَرْبُه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به .. واعلم أن لكل عدة عتاداً فعتاد الخير الصبر » .

ثم قال له : « ياسعد لا يغرنَّك من الله أن قيل : خالُ رسول الله ﷺ وصاحبه فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا بطاعته والناس شريفُهم ووضيعُهم فى ذات الله سواء . اللهُ ربُّهم وهم عِبادهُ ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت عليه رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه فإنه الأمر ، وعليك بالصبر واليقظة ، وتوكل على الله ، وسر على بركة الله ، وما النصر إلا من عند الله » .

فسار سعد بن أبى وقاص حتى نزل بالقادسية ، واجتمعت إليه الجنود من كل ناحية فصار سعد فى جمع عظيم وبلغ ذلك يزدجرد ابن هرمز ملك الفرس وتجمع الفرس وتولى قيادة جيشهم رستم .

وأرسل سعد كتاباً إلى عمر يصف له قوة الأعداء فكتب إليه عمر :

« لا يكربنك ما تسمع منهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأى والجلد ، يدعونه إلى الله واكتب إلىَّ فى كل يوم » .

وأرسل سعد بعض أصحابه إلى يزدجرد ملك الفرس وسار القوم حتى وصلوا إلى القصر الذى يقيم فيه يزدجرد ، فاستأذنوا عليه فأذن لهم ، فدخلوا عليه فإذا هو جالس على سرير له من العاج والأبنوس صغير ، والملوك وأبناء الملوك عن يمينه وشماله على الكراسى ، فقال يزدجرد : من أنتم أيها العرب ، طالبوا نعمة كسرى ؟ قالوا : بل رسل سعد بن أبى وقاص أمير الجيوش .

وقال له المغيرة : « إما أن تقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا أنت قلتها أقررناك فى بلدك وانصرفنا عنك ، لا يدخل بلدك هذا أحد إلا بإذنك ، وعليك الخراج الخمس والزكاة تؤديها إلى بيت مال المسلمين وإن أبيت ذلك فأداء الجزية عن يد وأنت صاغر وأُعْتِقَ منادمُك ، وإن أبيت ذلك

فأذن بحرب من الله ورسوله وجهاد فى سبيله » .

فغضب يزدجرد ثم قال : ما ظننت أن أعيش حتى أسمع من أمثالكم هذا .

عاد الرسل إلى سعد بن أبى وقاص وأخبروه .

عبّأ سعد بن أبى وقاص أصحابه ، فكان يومئذ قريباً من أربعين ألفاً وقد كان عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما فأمدهم بعشرين ألفاً من أهل الشام ، فصار سعد فى ستين ألفاً . وجعل فى ميمنته عمرو بن معدى كرب ، وجرير بن عبد الله البجلى فى عشرة آلاف فارس وراجل وجعل على ميسرته إبراهيم ابن حارثة الشيبانى وعلى بن جحش العجلى فى عشرة آلاف بين فارس وراجل وجعل فى القلب طليحة بن خويلد الأسدى ، والمنذر ابن حسان فى عشرة آلاف فارس ، وخمسة آلاف راجل .

القتال فى القادسية

كان سعد بن أبى وقاص مريضاً وبه بعض الدمامل والقروح تمنعه من الجلوس أو ركوب الخيل فاصدر أوامره لجيشه وهو منبطح على الأرض . كانت أيام القادسية ثلاثةَ أيامٍ متوالية ، لم تهدأ فيها الحرب . وأراد سعد بن أبى وقاص ، أن يبعث الحمية والحماس فى قلوب الناس فأمر الشعراء والخطباء أن يقوموا خطباء فى الجند ليُحَمِّسُوهُمْ على القتال .

ثم قال سعد : « الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فإذا صليتم فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم » .

فوجئ المسلمون فى اليوم الأول من أيام القادسية بالفيلة التى كادت تصيب خيل المسلمين بالذعر وانتهى اليوم الأول لصالح المسلمين ، وفى اليوم الثانى برزت بطولة القعقاع بن عمرو وقيل إن القعقاع بن عمرو قتل وحده فى هذا اليوم ثلاثين فارساً .

وجاء اليوم الثالثُ والمسلمون يتقدمون على الفرس وكانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التى دونها التاريخ وقتل فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة ... وأما من قتل من الفرس فعدد كبير وانتهت هذه الوقائع بكسر الفرس وتشتت جندهم ودخل الوهن على نفوسهم .

وقد غنم المسلمون فى القادسية غنائم كثيرة وكتب سعد بن أبى وقاص ، إلى عمر بن الخطاب بكتاب يخبره فيه ويبشره بالنصر ، يقول فيه : « أما بعد : فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سَلَبَهُمُوهُ ونقله عنهم إلى المسلمين . واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام ، وفى الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارى وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم » .

أبو محجن الثقفي وحبسه وتوبته

كان أبو محجن الثقفى ، صاحب لهو وشراب وكان سعد بن أبى وقاص أقام عليه الحد مراراً ، فألقاه سعد فى السجن ولم يعبأ بتوسلاته ، بأن يسمح له بمشاركة المسلمين فى جهادهم . فلما سمع أبو محجن التكبير التفت إلى أَمة لسعد يقال لها : زبراء ، فقال : ويحك يازبراء ! ما حال المسلمين ؟ فقالت : أظنّ والله الدائرة على المسلمين ، وقد قتل منهم جماعة ، فقال أبو محجن : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أخاف أن يذهب الناس بشرف هذا اليوم ، فينالون الدنيا والآخرة ، وأنا موثق بهذا الحديد فلعن الله الخمر ولعن أبا محجن إن شربها بعد هذا اليوم ، ثم أقبل على سلمى .. امرأة سعد ، وجاريته .. زبراء فقال : أطلقانى ولكما الله على راعٍ وكفيل ، إن أنا سلمت ولم أقتل أن أرجع إليكما وأضع رجلى فى هذا القيد كما كانت ، فلما سمعت المرأتان يمينه وما أعطاهما من العهد والميثاق أطلقتاه فأخرجتا رجله من القيد . فقال لهما : أعطيانى اليوم هذه الفرس البلقاء وأعطيانى

سلاح سعد حتى أخرج فأقاتل وأرجع إليكما ، وسار أبو محجن حتى اختلط بالمسلمين متلثماً لا يُعْرَفُ والمسلمون لا يعلمون من هو ، غير أنهم عجبوا من قتاله .. وسعد بن أبى وقاص على سطح بيته ينظر إلى فعله وكان أبو محجن قد قتل الكثير من الأعداء ، ورجع أبو محجن بعد المعركة إلى بيت سعد ، ونزع السلاح فرده على المرأتين ودعا بالقيد فقيد رجله كما كان ، فأرسلت سلمى إلى سعد ابن أبى وقاص ، وسألته أن يصير إليها فنزل سعد حتى دخل عليها ، فقالت : أيها الأمير ! ما حال الناس ؟ قال : ويحك ياسلمى ! لقد كانت الدائرة على المسلمين غير أن الله تبارك وتعالى منَّ علينا بفارس لا أدرى من الآدميين هو ، أم من الملائكة فأعطى الله المسلمين به الظفر قالت : فهل عرفت الرجل ؟ قال لا ولكنى شبهت بلقاء كانت تحته ببلقائى ، وسلاحاً كان عليه بسلاحى ، فقالت والله إنه أبو محجن الثقفى ... فعفا عنه سعد وتاب أبو محجن توبة نصوحاً ولم يعد إلى شرب الخمر بعد ذلك .

فتح المدائن

إن موقعة القادسية كانت مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيداً للوصول إلى عاصمة الاكاسرة التى كانت معقل الأسرة الكسروية فكتب عمر إلى سعد يأمره بالمسير إلى المدائن ووضع سعد خطة لعبور نهر دجلة وجهز لذلك كتيبتين أطلق على الأولى : كتيبة الأهوال وجعل عليها عاصم بن عمرو وأطلق على الثانية اسم : الكتيبة الخرساء وجعل عليها القعقاع بن عمرو ، ونفذت الخطة وأدى جنود الكتيبتين عملهم بمهارة فى عبور نهر دجلة وتتابع الجيش يتخطى النهر حتى أن الجند كانوا يتحدثون وكأنهم على سطح الأرض .

وكان سعد مشفقاً على الجيش ، فأخذ يردد : حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وَلِيَّه وليظهرن الله دينَه أو ليهزمنَ الله عَدُوَّه .

إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات ، ثم أمر سعد المسلمين أن يقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ودخل المسلمون المدائن وانتصر سعد وجيشه وفر قواد الفرس ودخل سعد ومن معه إلى القصر الأبيض ، ورأوا عرش كسرى وكان من الذهب الخالص ، ثم صلى صلاة الفتح ، ركعتين شكراً لله عز وجل وأخذ الناس يرددون : الله أكبر الله أكبر هذا ما وعد الله ، صدق الله ورسوله » .

وقسم الفيء على الجند وأصاب الفارس من المسلمين اثنى عشر ألفاً وبعث سعد بالأخماس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى فلما رأى ذلك قال : إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له على رضى الله عنه « يا أمير المؤمنين إنك عففت فعفت الرعية ولو رتعت لرتعوا » .

سعد أميراً علي العراق

لم يجد عمر بن الخطاب أفضل من سعد بن أبى وقاص ليجعله أميراً على العراق وأقام سعد والياً على الكوفة وتوابعها نحواً من ثلاث سنين وكان حسن الإمارة كثير التتبع لأحوال الرعية منصفا بين المسلمين وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عمرو بن معد يكرب عن سعد بن أبى وقاص ، فقال : متواضع فى حياته ، عربى فى عزته ، أسد فى تاموره ، يعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية ، ولا يبعد عن السرية ويعطف عليها عطف البررة ، وينقل إلينا خفيا نقل الذرة .

إلا أن أهل الكوفة لما أخلدوا إلى الراحة ، أخذ يتولد فيهم الفساد ، وشكاه بعض أهل الكوفة لعمر بن الخطاب ، زاعمين أنه لا يحسن الصلاة . واستدعاه عمر إلى المدينة فقال سعد : والله إنى لأصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ . وأراد عمر إرجاعه إلى الكوفة ، ولكن سعداً رفض العودة إلى الكوفة وقال : أتأمرُنى أن أعودَ إلى قوم يزعمون أنى لا أُحْسنِ الصلاةَ ؟ .

وفاة سعد بن أبي وقاص

دارت فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه فتنة فلم ينضم سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه إلى أى فريق لكنه كان يسدى النصح والمشورة لمعارضى عثمان .

ومن محاسن أقواله مارواه ابن عساكر قال : قال سعد لابنه :

إذا طلبت الغنا فاطلبه بالقناعة فإنه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال .

ومرض سعد ، وإذا بإبنه مصعب بن سعد يبكى ، فنظر إليه سعد وقال : ما يبكيك يابنى فقال : أبكى لما بك يا أبى فقال سعد رضى الله عنه : لا تبك علىَّ يابنىَّ ، فان الله لا يعذبنى أبداً وإنى من أهل الجنة ، إن الله يدين المؤمنين بحسناتهم ما عملوا ، وأشار على خزانة ففتحها ثم أخرج منها رداء قديما ، فأمر أهله أن يكفنوه فيه . قائلاً لهم : لقد لقيت المشركين فيه يوم بدر ولقد ادخرته لهذا اليوم .

وفى سنة خمس وخمسين هجرية مات سعد وصلى عليه مروان ابن الحكم وكان والياً على المدينة ودفن فى البقيع وكان آخر العشرة المبشرين بالجنة موتاً رضى الله عنه وأرضاه .

٩ ـ قتيبة بن مسلم
فاتح بلاد ما وراء النهر

اسمه

هو أبو حفص ، قتيبة بن مسلم بن عروة الباهلى ، ولد فى العراق سنة تسع وأربعين هجرية ، وقد بدأ فى الدخول فى المعارك وهو ابن سبعة عشر عاماً ، كان قتيبة من قبيلة باهلة ، التى كانت قليلة العدد ، ولم يكن لها شهرة فى الجاهلية فلما جاء الإسلام برز فى القبيلة قائدان كبيران هما : سلمان بن ربيعة الباهلى الذى فتح أرمينية، وقتيبة ابن مسلم الباهلى .

كانت شخصية قتيبة شخصية قائد حازم وشجاع ، وظهرت فيها الصفات العسكرية والصفات العقلية والسرعة فى اتخاذ القرارات وقد أدت الفتوحات التى قام بها قتيبة إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

استطاع قتيبة أن يحظى بثقة الخلفاء الأمويين إذ عين فى عهد الخليفة عبد الملك بن مران والياً على الرى ثم والياً على خراسان حتى آخر عهد الوليد بن عبد الملك واستطاع قتيبة أن يتوغل بجنوده إلى بيكند وبخارى وسجستان ، وخوارزم ، وسمرقند ، وكاشغر أدنى مدائن الصين .

فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه تم فتح خراسان وجرجان وطبرستان وسجستان ، ثم أمر عمر رضى الله عنه الأحنف ابن قيس أن يتوقف عند نهر جيحون .

وفى عهد عثمان امتد التوسع الإسلامى حتى جنوبى بحر قزوين ، ثم تخطت الجيوش الإسلامية نهر جيحون ودخلت بلاد ماوراء النهر فى الدولة الإسلامية ، واستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول .

وأدت الفتنة إلى قتل عثمان وتمردت بلادٌ كانت قد ارتبطت بصلح مع الدولة الإسلامية ومع بداية عهد الدولة الأموية بدأت تحركاتها نحو هذه البلاد ، إلى أن تولى الحجاج بن يوسف الثقفى إمارة العراق ، فبدأ التخطيط لإعادة الفتوح وأسند هذه المهمة إلى قتيبة ابن مسلم .

واجه قتيبة صعوبات فى فتح هذه البلاد أهمها طول خط المواصلات بين العاصمة دمشق ومكان الفيالق المهاجمة على حدود الصين وكذلك اختلاف الطبيعة الجغرافية للأرض .

غزو قتيبة بيكند

تقع مدينة بيكند على مسافة أربعين كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من بخارى وفى سنة سبع وثمانين هجرية توجه قتيبة إلى بيكند وظل يحاصر المدينة حتى فتحها ، فقتل مقاتليها وهدم سورها ثم جمع غنائمها ، فأخرج منها الخمس فتوجه به إلى الحجاج بن يوسف ، وكتب إليه يخبره بفتح بيكند ، ثم قسم باقى الغنائم بين المسلمين ، وقوى المسلمون بما أصابوا من غنائم بيكند ، وتنافسوا فى شراء السلاح ، ولقد أصاب قتيبة فى خزائن بيكند سلاحاً كثيراً ، فقسمه بين المسلمين ، وأصاب خزانة مقفلة فأمر بفتحها ففتحت ، فأخرج منها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى ، وأصابوا صنما عظيماً مصنوعا من الذهب الخالص فأمر قتيبة بإذابته فأذيب فخرج منه خمسون ومائتا ألف دينار وأصابوا لؤلؤتين عظيمتين فعجب قتيبة من كبرهما وضيائهما ، ثم بعث بهاتين اللؤلؤتين إلى الحجاج بن يوسف ولما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع إلى مرو .

فتــح بخــاري

جمـع قتيـبة بن مـسلم المسلمين وسـار إلى بخارى وبهـا يومئـذ ملك عظيم الشأن اسمه معاينون بن راع ومعه أربعون ألفاً ، نزل عليهم قتيبة بجيشه واستمرت الحرب أيامـاً كثيـرة وأرسلوا إلى قتيـبة يسألونه الصلح على أن يـعطوه مائتى ألف درهم ، فرضى قتيبة منهم ذلك .

وكان قتـيبة أخذ منهم رجلاً أعـور أسيراً فقدمـه ليضرب عنقه ، فـقال : أيها الأمير لا تقتلنى وأنا أفدى نفسى بما قيمته ألف ألف درهم وكان هذا الرجل شيطاناً من شياطينهم ، فقال قتيبة لأصحابه : ما ترون فيما يقول هذا الكافر ؟ فقالوا : أيها الأمير ! هذا الذى قد بذلـه رغبة وزيادة فى الغنيمة فخذ منه مـا قد بذل ولا تقتله ، فقال قتيبة : لا والله لا تروع باسمه مسلمة أبداً ! ثم قدمه فضرب عنقه .

فتح مرو الروذ والطالقان والفاريات

سار قتيبة إلى مرو الروذ وكان بها ملك يقال له باذام فقتله قتيبة وقتل له ولداً كبيراً ، وسـار إلى الطالقان ، وكان بها صعالـيك الترك فحاربهم قتيـبة يوماً واحدا وانتصـر عليهم ، وقتل جمـاعة منهم واستـعمل على من بقى منهم أخاه عـمرو بن مسلم وسـار إلى الفاريات ، فلما وصل إليـها تلقاه ملكهـا مذعناً مقـراً له بالسمع والطاعة .

ثم سار إلـى الجوزجان فـتلقاه أهلهـا سامعين مطيعين ، وهرب ملكـها إلى الجبل .

فتح بلاد سجستان وبلخ

جمع قـتيبة أصـحابه وسار بهم يريد سـجستان وكـان بها ملك اسمـه رتبيل ومعه سبعون ألفاً من الجنود واستطاع قتيـبة أن يغير على بلاد سجستان وكره ملك سجستان حرب قتيبة وسأله الصلح ، فأجابه قتيبة على خمسمائة ألف درهم .

ثم سار قتيبة إلى بلخ وكان عليها ملك اسمه الشاه بن نيزك ووقعت الحرب بين الفريقين فاقتتلوا ، فقتل من المسلمين سبعمائة رجل ، وقتل من أهل بلخ عدد كبير وأسر منهم ألف رجل ، وطلبوا الصلح ، فأجابهم قتيبة إلى ذلك .

فتح خوارزم

ثم سارقتيبة بجيشه حتى نزل على خوارزم وبها ملك ضعيف وكان له أخ يسمى خرزاد أصغر منه وكان إذا بلغه أن عند أحد مالاً أو دابة أو بنتاً أو أختاً أو امرأة جميلة أرسل ليأخذه وكان لا يمتنع عليه أحد ولا الملك نفسه .

وكتب الملك إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلمها إليه واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى فأجابه قتيبة إلى ما طلب وتجهز للغزو وأظهر قتيبة أنه يريد الصفد من مرو ، جمع ملك خوارزم الجنود قال : إن قتيبة يريد الصفد وليس يغازيكم فهلموا نتنعم فى ربيعنا هذا فأقبلوا على الشرب والتنعم فلم يشعروا حتى نزل بهم قتيبة فقال ملك خوارزم لأصحابه : ما ترون ؟ قالوا : نرى أن نقاتله ، قال : لكنى لا أرى ذلك لأنه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكن أصرفه بشئ أؤديه إليه فأجابوه إلى ذلك ، فأرسل ملك خوارزم إلى قتيبة فصالحه على عشرة آلاف رأس ، وعين ، ومتاع ، على أن يعينه على أخيه خرزاد فقبل قتيبة ... وسلم قتيبة إلى ملك خوارزم أخاه ومن كان يحالفه فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتيبة ، فأخرج قتيبة من ذلك الخمس فوجه به إلى الحجاج ، وقسم باقى ذلك فى المسلمين .

وأرسل الحجاج إلى قتيبة كتاباً قال فيه : « أما بعد فإنى لست بآس إذا فتح الله علينا وعليك خوارزم وأغتنمنا أموالها ، وخزائنها وغنائمها أن يفتح الله عليك وعلينا ما بعدها ، وقد بلغنى أنك تريد المسير إلى سمرقند ، وأنا أنشدك إن غزوت بالمسلمين ، وأنا أسأل الله أن يعز نصرك ، وأن يحسن عاقبتك ، وأن يمدك بالملائكة المردفين ، وأن يرعب قلوب أهل سمرقند ، وأن يخالف بين كلمتهم ، وأن يلقى

بأسهم بينهم ، وأن يورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وأن يجعل دائرة السوء عليهم إنه على كل شئ قدير ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

معركة سمرقند

أراد قتيبة أن يتجه إلى سمرقند أمنع الحصون وأقوى المدن فى بلاد ما وراء النهر وكان غورك ملك سمرقند قد جمع الجنود واشتبك الفريقان فاقتتلوا مراراً ، ثم تكلم رجل من أهل سمرقند فقال : يا معشر العرب ! على ماذا تقاتلونا وتدخلون على أنفسكم المشقة والعناء في أمر لا تصلون إليه ؟ إنا قد وجدنا في بعض كتبنا أن مدينتنا هذه لا يفتحها إلا رجل اسمه أكاف الجمل ، فانصرفوا عنا ولا تتعبوا خيلكم وتقتلوا أنفسكم ، فقال قتيبة : الله أكبر ! فأنا والله أكاف الجمل ، أنا قتيبة والقتب قتب الجمل . ثم جد فى حربهم فقتل منهم عدداً كبيراً . وخاف أهل سمرقند من طول الحصار فكتبوا إلى ملك الشاش ، خاقان ، بأن العرب قد قاتلونا وقاتلناهم فإن هم ظفروا بنا ساروا إليكم فانظروا لأنفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها .

ودام الحصار شهراً كاملاً ، لكن قتيبة فوجئ بوصول المدد من أهل الشاش الذين إنتخبوا أهل النجدة والشجاعة من أهل بلدهم لتساند ملك سمرقند .

ولكن قتيبة انتخب ستمائة فارس من أهل النجدة والشجاعة وجعل عليهم أخاه صالح بن مسلم وأعلمهم الخبر وأمرهم بالمسير إلى عدوهم واستطاعت هذه الكتيبة القضاء على النجدات القادمة من الشاش ، فانهزموا ولم يفلت منهم إلا اليسير وأسر منهم جماعة .

وعند ذلك تمكن قتيبة من دك أسوار المدينة بالمنجنيقات فلما كان الغد استسلم ملك سمر قند « غورك » ووقع الصلح مع قتيبة على ألفى ألف درهم عاجلة ومائتى ألف درهم فى كل سنة وعلى ثلاثة آلاف رأس من الرقيق ، على أن تخلو المدينة من المقاتلين ويدخل قتيبة وأصحابه ويصلى ، وعلى أن يبنوا لقتيبة

مسجداً فى المدينـــة « مسجد قتيبة » لإقامة الصلاة ونشر الإسلام .

فتح كاشـــغر أدني مدائن الصين

وبعد أن فـتح قتيـبة سمرقند تمكـن من فتح طاشقند وفـرعانة وفى سنة ست وتسعين اتجه قتيبة إلى الصين .

وحشد قتيبة حوالى واحد وأربعين ألفاً من الجنود ولما رأى ملك الصين ذلك كـتب إليه مـلك الصين أن ابعث إلى رجـلاً شريفـاً يخـبرنـى عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال ، وألسن ، وبأس ، وعقل .

فلما مـثلوا بين يدى ملك الصين قال : قد رأيتم عـظم ملكى وأنه ليس أحد يمنعكم منى وأنتم فى يدى بمنزلة البـيضـة فى كفى ... فقـولوا لصاحبـكم ينصرف فإنى قـد عرفت قلة أصـحابه وإلا بعـثت إليكم من يهلككم . قالوا : كـيف يكون قليل الأصحاب من أولُ خَيْلـهِ فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟

وأما تخويفـك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حـضرت فأكرمهـا القتل ، ولسنا نكرهه ولا نخـافه . وقـد حلف أن لا ينصرف حـتى يطأ أرضكم ويخـتم ملوككم وتعطوا الجزية ، فقـال ملك الصين : فإنا نخرجه من يمينه ونبـعث إليه تراب أرضنا فيطؤه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها .

وفاة الوليد بن عبد الملك

مات الوليـد بن عبـد الملك فى سنة ست وتسعين هجـرية ، وكانت خلافـته تسع سنين وكانت وفاته بدير مران ودفن وصلى عليه عمر بن عبد العزيز .

وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة فـى اليوم الذى توفى فيه الوليد بن عبد الملك . وبدأ عهد سليمان وكانت الفترة الأولى من حكمه مملوءة بالإنتقام وقد تمنى الحجاج بن يوسف الموت قبل أن يتولى سليمان بن عبد الملك وحقق الله أمنيته فنجا الحجاج بالموت من عذاب سليمان ، أما محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فقد ذاقا

العذاب من سليمان ، وهكذا قتل سليمان وعذب محمد بن القسم الذى دخل على يده الإسلام إلى بلاد السند .

نهاية القائد

فى عام ستة وتسعين قتل قتيبة بن مسلم الباهلى بخراسان وكان سبب قتله أن الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعل بدلاً منه ابنه عبد العزيز فأجابه إلى ذلك الحجاج ، وقتيبة فلما مات الوليد وولى سليمان خاف قتيبة من سليمان وكتب إليه يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أخيه الوليد .

وكان يزيد بن المهلب من المقربين إلى سليمان وكان يطمع فى أن يكون والياً على خراسان .فثار على قتيبة بنو تميم وكانوا يُكَوِّنُونَ جزءا كبيراً فى جيشه وهجم عليه وكيع بن حسان التميمى وجماعته فقتلوه . وهكذا قتل قتيبة بن مسلم الذى دفع الفتح الإسلامى إلى خراسان وما وراء النهر . حتى قال أحد رجال خراسان : قتلتم قتيبة ؟ ، والله لوكان قتيبة منا فمات فينا لجعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا .

١٠ ـ عبد الله بن رواحة

اسمه

عبدُ الله بن رواحةَ الأنصارىُّ الخزرجىُّ ، أحدُ الصحابة المشهورين ، والفرسان المعدودين ، والشعراء الشهداء الخالدين .

وكان أجداده من ذوى الزعامة والرياسة والفروسية والمجد ، فكان بهذا النسب العريق رفيعَ القدر فى قومه ، مسموعَ الكلمةِ ، سيداً فى الجاهلية والإسلام .

نشأ منذ صغره على حبِّ العلم والإقبال على المعرفة ، فأتقن القراءة والكتابة ثم آنس فى نفسه ميلاً إلى الشعر ، فأبدعَ فيه حتى أصبحَ لا يقلُّ منزلة عن الفحولِ من شعراء عصره .

إسلامه

لم يكد يسمعُ عبد الله بن رواحةَ ، رضى الله عنه ، بظهور الإسلام حتى سارعَ إلى الدخول فى هذا الدين الجديد ، بفطرته السليمة ، وقلبه المتفتح إلى كل ما فيه الخير والصلاح ، فَحسُن إسلامه .

ولَمَّا كان من وجهاء قومه فقد شهد بَيعةَ العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار القادمين إلى مكة ، فأخذ عليهم النبىُّ ﷺ أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادَهم . وقد أقام الرسولُ الكريمُ عليهم يومذاك اثنى عشر نقيباً ، فكان عبد الله بن رواحة واحداً من هؤلاء . وكان البراءُ بن معرورٍ زعيم الذين بايعوا محمداً ﷺ من أهل المدينة ، حتى غضب المشركون من قريشٍ ، وأرادوا بهؤلاء النقباء الشرَّ والأذى .

ثم أذن الله تعالى لنبيِّه الكريم بالهجرة إلى المدينة ، فخرج الأنصار يستقبلون رسولَ الله فرحين مستبشرين ، ويستقبلون إخوانهم من المسلمين ، بعد أن مضى على البعثة ثلاثَ عشرةَ سنةً ، فما كان من الرسولِ الكريمِ إلا أن جمع المهاجرينَ والأنصار فآخى بينهم ، فكان حظُّ عبد الله بن رواحة أن يكون أخا للمقداد بن عمرو.

غزوة بدر

وفى السنة الثانية من الهجرة تجمَّع مشركو قريش فى بدر يريدونَ قتال رسول الله ﷺ وصحابته ، ولكنَّ الرسول أوصى جنده ألا يبدؤوا القتالَ إلا إذا دنا المشركون منهم ، ثم وقف يناشد ربَّه ، ويطلب منه العونَ والمددَ ، ولما رأى عبدَ الله بن رواحةَ يستعجل ساعةَ المعركة قال النبى الكريم : « يا بن رواحةَ ، ألا أنشد الله وعدَه ؟ إنَّ الله لا يخلف الميعاد » .

ثم استشار النبىُّ ﷺ المسلمين فى أمرِ القتال ، إذ كان يتخوَّف أن يُحجمَ الأنصارُ عن القتال إلا إذا دَهَمَهم العدوُّ فى بلدهم ، فهبَّ سعدُ بنُ معاذ الأنصاريُّ وقَلبُه مملوء بالإيمان وقال :

« يا رسول الله ، قد آمنَّا بكَ وصدَّقناكَ ، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحقُّ ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثكَ بالحق ، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَهُ لخُضناه معكَ ، ما تخلَّف منَّا رجلٌ واحدٌ ، وما نكره أن تلقى عدوَّنا بنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى القتال ، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينُكَ فسرِ بنا على بركة الله » .

ثم لما كان القتال خرج ثلاثةٌ من المشركين يريدون ثلاثة من المسلمين للمبارزة، فاندفع إليهم ثلاثةٌ من فتيان الأنصار وهم : عوفٌ ومُعوَذٌ وعبد الله بن رواحة ، ولكن زعماء قريش أبوا أن يبارزوا هؤلاء الشبابَ ، وقالوا : « يا محمدُ

أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا » ، فأمر رسول الله ﷺ عُبيدةَ بنَ الحارِثِ وحمزةَ وعلياً أن يقوموا إليهم ، فقاموا وقد أيَّدهم الله تعالى بالنصر المبين .

وأنجز الله تعالى وعدَهُ بنصر المسلمين فى هذه الغـزوة المباركة ، فبعثَ رسول الله ﷺ ، عبـدَ الله بن رواحة إلى عاليـة أهل المدينة يُبشِّـرهم ، فوقف عبـد الله يقول بصوته المفـعم بالفرح : « يا معـشر الأنصار ، أبشـروا بسلامة رسـول الله ﷺ وقتلِ المشركين وأسرهم .

غزوة أُحُدْ

كان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أحدَ الذينَ حضروا موقعةَ أُحُد ، وأبلى فيـها بلاءً حسناً ، وذلـك فى السنة الثالثة من الهـجرة ، وفـيها قُـتلَ حمزةُ بن عـبد المطّلب رضى الله عنه . ولما سـمع رسولُ الله ﷺ نسـاءَ الأنصار يبكين على قـتلاهُنَّ ذرفت عيناه وقال : « لكنَّ حمزةَ لا بواكيَ له » .

فما كان من عبد الله بن رواحة ، وقد آلمه المصابُ ، إلا أن تدفَّق لسانه بقصيدة مؤثرةٍ يرثى بها حمزةَ رضى الله عنه يقول :

بكتْ عـينـي وحُقَّ لهـا بكاها ... ومـا يغنـي البكاءُ أو العـويلُ
علي أسـدِ الإلهِ غـداةَ قـالـوا ... أحـمـزةُ ذاكم الرجلُ القـتـيلُ

عبد الله بن رواحة أمير على المدينة

لما انصرف أبو سفـيان ومن معه من غزوة أُحُـد ، وقد فرح بما حلَّ بالمسلمين من الهزيمة نادى: الموعدُ بيننا وبينكم بدرٌ فى العَام المقبِل ، نلتـقى فيه نقتتل . فأجابه عُمر رضى الله عنه :

ـ نعم إن شاء الله ، هو بيننا وبينكم موعد .

فـفى السنة الرابعة خـرج رسولُ الله ﷺ وسـلم لميعـاد أبى سفـيان ، بعـد أن استـخلفَ على المدينة عـبدَ الله بن رواحـة أميـراً ، وخرج أبو سـفيـان بمن معـه من

مشركى أهل مكةَ ، ولكنَّ الفزعَ دبَّ فى نفسه ، لما رأى من قوة المسلمين وتصميمهم على الجهاد ، فأخذ يقول لجماعته متعلّلاً : يا معشرَ قريش ، إنه لا يُصلحُكم إلا عامٌ خصيبٌ ترعونَ فيه الشجر وتشربون فيه اللبنَ ، وإنَّ عامكم هذا عامُ جدبٍ ، وإنى راجع فارجعوا .

فقالَ فى ذلك عبد الله بن رواحة يتشمت بأبى سفيان :

وعَدْنا أبا سفيان بدراً فلم نجدْ	لميعاده صدقاً وما كان وافياً
فأقسمُ لو وافيتنا فلقيتنا	لأبتَ ذميماً وافتقدتَ المواليا
فإني وإن عنّفتموني لقائلٌ	فدي لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدِلْه فينا بغيره	شِهاباً لنا في ظلْمةِ الليل هادياً

غزوة الخندق

شهد عبدُ الله بن رواحة مع رسول الله ﷺ غزوة الخندق ، فكان رسولُ الله ينقلُ الترابَ يومئذ مع المجاهدين ، حتى وارى الترابُ بياضَ إبطيه ، وعبد الله بن رواحة يردّد :

والله لولا أنتَ ما اهتدينا	ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا	وثبِّت الأقدامَ إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنةً أبَيْنا

وبلغ رسولَ الله أنَّ كعبَ بن أسد قد نقض العهدَ الذى كان قد عقده مع رسول الله ، فأرسلَ النبىُّ الكريمُ عبد الله بن رواحة مع ثلاثةٍ من الفرسان يستطلعون صحةَ الخبر .

صلح الحديبية وعمرة القضاء

وفى السنة السادسة من الهجرة خرج رسول الله ﷺ يريد العُمرةَ ، وساق معه الهَدْىَ ، وأحرم ، ليُعلمَ الناسَ أنه لا يريد حرباً . وكان أصحابه أكثرَ من ألف وأربعمئة ، وفيهم أبو بكر وعُمر وابنُ رواحة وغيرهم ، فصدَّتهم قريش ، برغم علمها بحُسن ما جاءوا إليه ، ثم عُقدت بين الفريقين هُدنَةُ الحديبية ، وتنصُّ على أن يأمنَ الناسُ الحربَ عشرَ سنينَ ، وأن يرجعَ رسول الله فلا يدخلَ عليهم مكةَ ذلك العامَ ، فإذا كان العامُ القادم ، خرجت قريش ودخل رسول الله ﷺ بأصحابه ، فأقام فيها ثلاثاً ومعه سلاح الراكب فقط .

وفى العام السابع من الهجرة جاء رسول الله مع من كان قد صُدَّ فى عمرته تلك ، وأدى عمرة القضاء ، فدخل مكةَ وقد ركب ناقته القصواءَ ، وأصحابه من حوله متوشِّحو السيوف يُلَبُّون ، وعبد الله ابن رواحة بين يديه آخذُ بزمام ناقته وهو يرتجز[1] ويقول :

خلُّوا بنى الكفار عن سبيلهِ ... خلُّوا فكلُّ الخير في رسولِه
يارَبِّ إنى مؤمنُ بقيلهِ ... أعرف حقَّ الله فى قبولِه
نحنُ قتلناكم علي تأويلهِ ... كما قتلناكم علي تنزيلهِ
ضرباً يُزيل الهام[2] عن مقيلهِ ... ويُذهل الخليل عن خليلهِ

فقال عمرو : يا ابن رواحة ، أفي حرم الله وبين يدى رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر ؟! . فقال الرسول ﷺ : « خلِّ عنه يا عمر فوالذى نفسى بيده لكلامه أشدُّ عليهم من وقْع النَّبْلِ » .

ولم يزلَ النبى الكريم يلبى حتى استلم الركن بمِحْجَنه[3] وحتى جاء

(١) يرتجز : يقول شعراً من بحر الرجز .

(٢) الهام : الرءوس .

(٣) المحجن : عصا معكوفة الرأس .

عروشَ مكة[1] . وكان عبد الله ما يزال يرتجز فى طوافه ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « إيها يا ابن رواحه ، قل لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصرَ عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

فقالها الناس ، فلما قضى طوافه خرج إلى الصفا ، فسعى على راحلته ، والمسلمون يسترونه من أهل مكةَ مخافة أن يرميه أحد منهم أو يصيبه بشئ ، ونحن عند المروة ، وحلق ثم دخل البيت .

الشهيد فى غزوة مؤتة

فى السنة الثامنة من الهجرة بعثَ رسولُ الله ﷺ الحارثَ بن عُميرة إلى مؤتة[2] ومعه كتاب إلى صاحب بُصرى ، وكان الغساسنة قد نصبوا شرحبيل بن عمرو عاملاً من قبلهم على دمشق ، فلم يَرْعَ الحقوق والعهودُ التى تقضى باحترام الرُّسُل والمحافظة عليهم ، فغدر بالحارث بن عمير وضُرب عنقه ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ ، فجهز جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولما صلى الظهر عقد لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن الحارثة ، فجعله أميرًا على الجيش ، ثم قال :

« ... فإن قُتل زيد بن الحارثة فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفرُ فعبد الله بن رواحة » .

ووقف الناس يودعون الجيش وأمراءه ، ويسلمون عليهم ، ويدعون لهم بالسلامة والظفر ، فرأوا قطرات ممن الدمع تسيلُ على خدى عبد الله بن رواحة ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حبٌ الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾[3] فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود .

فقال المسلمون : صَحِبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين .

---

(١) عروش مكة : بيوتها .

(٢) مؤتة : قرية جنوب دمشق .

(٣) مريم : ٧١ .

فقال ابن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ(١) تقذف الزبدا(٢)

أو طعنة بيدي حران مُجهزة(٣) ... بحربة تُنفذ(٤) الأحشاء والكبدا

حتي يقال إذا مروا علي جدثي(٥) ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم قال : يا رسول الله مرني بشئ أحفظه عنك .

فقال ﷺ : « إنك قادم غداً بلداً السجود فيها قليل ، فأكثر السجود » ، ثم انطلق الجيش على بركة الله ، وعبد الله بن رواحة متلهف إلى أن يرزقه الله الشهادة فى سبيل الله ، حتى إذا بلغوا مؤتة بعد أن أقاموا يومين بمعان سمعوا أن هرقل قد نزل قاب ومعه مئة ألف مقاتل من الروم معززين بمائة ألف أخرى من القبائل العربية ، فاجتاح الفزع قلوب المسلمين ، وأخذوا يفكرون فى أمرهم ، حتى إنهم أرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ ، فإما أن يمدهم بالرجال ، وإما أن يأمرهم بأمره فيطيعوه .

ولكن عبد الله بن رواحة انطلق يشجع القوم ويحثهم على مواجهة العدو قائلاً : والله ما كنا نقاتل بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، انطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور عليهم[٦] ، فذاك ما وعدنا الله ووعد نبينا وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحقٌ بالإخوان ، نرافقهم فى الجنان ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

---

(١) ذات فرغ : واسعة .
(٢) الزبد : رغوة الدم .
(٣) مجهزة : سريعة القتل .
(٤) تنفذ : تخترق .
(٥) الجدث : القبر .
(٦) إما ظهور عليهم : أى انتصار .

ثم احتدمت المعركة ، وكثر الضرب والطعن ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى سقط شهيداً ، فتناول الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل بها حتى سقط شهيداً أيضا وفى جسده أكثر من تسعين طعنة ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فى هذا الموقف العصيب فجعل يستنزل نفسه ويقول :

أقسمت يا نفسُ لتنزلنة ... طائعة أو فلتكرهنة
مالى أراك تكرهين الجنة ... قد طالما كنت مطمئنة

ويقول أيضًا :

يا نفس إلا تُقتلي تموتى ... هذا حمام الموت قد صليتِ(١)
وما تمنيت قد أعطيتِ ... إن تفلى فعلَهما هُديت

ثم نزل إلى ساحة المعركة فتقدم إليه ابن عم له وأعطاه عظما عليه قليلمن اللحم ليتقوى به وقال له : شد به صُلبك فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت . قليلٌ من فأخذه من يده فانتهس منه[٢] نهسة ، ثم سمع صليل السيوف وجلبة القوم فنظر إلى قطعة العظم وقال : وأنت فى الدنيا ! ثم ألقاه من يده وامتشق سيفه ، فتقدم فقاتل بكل جرأة وشجاعة حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة ، وقبره مع قبر صاحبيه اليوم فى قرية « المزار » التى تبعد عن مؤتة ثلاثة كيلو متراً إلى الجنوب .

فدعا الناس خالد بن الوليد ليحمل الراية ، فحملها وأخذ يحمى المسلمين ويحجزهم من ضربات العدو ، حتى انصرف بهم ، وقد انكسر فى يده تسعةُ أسياف وهو صابر يجالد ويقاتل .

وكان ذلك الانسحاب براعة حربية من خالد رضى الله عنه إذ جنب الجيش الإسلامى بذلك المزيد من القتلى ، ومنذ ذلك الحين سمى رسول الله ﷺ خالدًا «سيف الله » ولما رجع الجيش إلى المدينة المنورة تلقاهم الناس وجعلوا يرمونهم

---

(١) قد صليت : عانيت شدة الموت .

(٢) انتهس منه : تناوله بمقدم أسنانه .

بالتراب ويقـولون لهم هازئين : يا فُرار ، فيـقول رسول الله ﷺ : « ليسـوا بالفرار ، ولكنهم الكُرار[1] إن شاء الله » .

وبكى المسلمون شهـداء مؤتة ، فأمر الرسول الكريم وهو رسـول الرحمة أن يحمل المسلمون أولاد الشهداء ويعتنوا بهم ، وكـان حسان بن ثابت أشد الصحابة حزنا على شهداء مؤتة فقال يرثيهم :

فـلا يبـعـدن الله قـتلى تتـابعـوا ... بمؤتة ، منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيد وعـبـد الله حين تتـابعـوا ... جـمـيـعًا وأسباب المنيـة تخطرُ

فضائل عبد الله بن رواحة

لقد اجتمعت فى عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ فضائل جمة ، ومناقب كثيرة جعلت منه رجل فكر ورجل عمل فى آن واحد ، فكان الصورة المثلى للإيمان والإخلاص ، والطاعة والحمية ، فلا يكاد يسمع بمجلس فيه ذكر الله إلا أقبل عليه ، ولا بمجمع للفقه والعلم إلا لزمه فأفاد منه ما يقـوى إيمانه ، ويعزز عقيدته ، وحسبه أن رسـول الله ﷺ قال عنه : « رحمَ الله عـبد الله بن رواحـةَ إنه كان يحب المجـالس التى تتباهى بها الملائكة » .

وقد ذكـرت زوجتـه أنه كان إذا أراد الخـروج من بيتـه صلى ركعـتين ، وإذا دخلَ بيته صلى ركعتين ، لا يدعُ ذلك أبدًا .

وكان رضى الله عنه يقول لأبى الدرداء كلما لقيه :

يا عويمر ، اجلس فلنؤمن ساعة ، يا عـويمر هذهمجالس الإيمان ، مثلُ الإيمان مثل قمـيصك بينا أنك نزعته إذ لبستـه ، وبينا أنك قد لبسته إذ نزعـته القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانها .

ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه ـ وكـان أخاه لأمه ـ : لقـد رأيتنا مع رسول

---

(١) الكرار : جمع كار ، وهو المقدم على العدو .

الله فى بعض أسفاره فى اليوم الحار الشديد الحر ، حتى إن الرجل ليضعُ من شدة الحر يده على رأسه ، وما فى القوم صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة .

وأبو الدرداء هذا ـ رضى الله عنه ـ كان إسلامه على يد عبد الله بن رواحة ، إذ كان آخر أهل داره إسلاما ، وكان عبد الله يدعوه إلى الإسلام فيأبى ، لأنه كان متعلقا بصنم له لا يفارقه ، فانتهز عبد الله فرصة غياب أبى الدرداء ، فاقتحم البيت الذى كان فيه لصنم ومعه القَدوم ، وكانت امرأة أبى الدرداء تُمشط شعرها فأهوى عليه حتى حطمه وهو يقول : ألا كل ما يدعى مع الله باطل ، ولما سمعت المرأة صوت القدوم وهو يضرب الصنم صاحت : أهلكتنى يا ابن رواحة . فخرج على ذلك . ولما رجع أبو الدرداء وجد المرأة قاعدةً تبكى شفقًا منه[1] فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك عبد الله بن رواحة دخل على فصنع ما ترى ، فغضب غضبا شديداً ، ثم فكر فى نفسه وهو يشير إلى الصنم المحطم : لو كان عند هذا خيرٌ لدافع عن نفسه ، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم .

وفى ميادين الحرب كان عبد الله فارسا شجاعا ، يصول ويجول بسيفه ولسانه حتى إنه كان أول خارج إلى القتال وآخر قافل[2] منه .

وقد كانت شاعرية ابن رواحة وقفا على الإسلام والمسلمين ، فى وقت كان للشعر فيه سلطان وتأثير كبير ، وإننا لنجد فى شعره الذى مررنا ببعض منه تفاخراً بالعقيدة ، ومدحا لنبى الإسلام ورثاءً لشهداء المسلمين .

وقد كان حسانُ بن ثابت ، وكعب بُن مالك شاعرين يعارضان المشركين بما يذكرونه من الوقائع والأيام والمآثر الجاهلية ، ويعيرانهم بالمثالب القبلية المعروفة آنذاك[3] . أما عبد الله بن رواحة فقد كان يعيرهم بالكفر لأنه أقبح المخازى وينسبهم إليه ، فكان أشد شئ عليهم قول حسان وكعب لاعتزازهم بمفاخر

---

(١) شفقًا منه : خوفا منه .

(٢) القافل : الراجع .

(٣) المثالب : النقائض والعيوب .

الجاهلية وتعزيهم بعزائها[1] فكان أشد شئ عليهم قول ابن رواحة لتنكبهم عن طريق الإسلام ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلامَ ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة ، لقد عاش عبد الله رجلاً ومات رلاً ، فكان ثوابه سريراً من ذهب مع صاحِبيه فى جنات النعيم .

---

(١) تعزيهم : انتسابهم .

١١ ـ عيـاض بـن غـنـم
فاتح بلاد الجزيرة

اسمه

هو أبو سعيد عياضُ بن غنم الفهرى ، الصحابى الجليل ، والقائدُ المجاهد، الذى تم على يده فتح الجزيرة .

كان رضى الله عنه من المهاجرين الأولين إلى المدينة المنورة ، وأحد الفرسان الأبطال الذين رافقوا رسول الله ﷺ فى غزواته ، فشهد معركة بدر الكبرى ، كما شهد ما بعدها من المعارك والغزوات ، ولما قدم رسول الله ﷺ في السنة السادسة من الهجرة ، يريد العمرة ، ومعه صحابته من المهاجرين والأنصار ، كان عياض بن غنم رضى الله عنه من بين هذه الصفوة المشرفة ، ولكن قريشا خرجت لتصدهم عن البيت الحرام ، وتمنعهم من زيارته ، إلى أن وقع بين الطرفين اتفاق سُمى بـ « صلح الحديبية » .

تمثلت فى شخصية عياض بن غنم ـ رضى الله عنه ـ معظم الأخلاق الكريمة والفاضلة ، فقد كان رجلاً صالحا تقيًا ، زاهداً مُعرضا عن متاع الدنيا وملذاتها ، مقبلاً على الآخرة فى كل أقواله وأفعاله ، كريما جواداً ، لا يبخل على أحد بمال يقتنيه أو طعامٍ يملكه ، حتى أنه كان يسمى « زاد الراكب » وذلك لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده من الطعام ، وإذا خرج معهم إلى السفر أو إلى الغزو آثرهم بزاده على نفسه ، فإذا نفذ ما عنده من الزاد و الطعام لم يقصر فى نحر جَمله ليكون لحمه طعاماً لهم .

ولاشك فى أن هذه الصفات الحميدة هى التى أهلته لأن يكون قائداً يلتف حوله جنوده ، ويبدون له أقصى ما يملكون من الحب والطاعة وحُسن الانقياد .

عياض بن غنم وأبي عبيدة بن الجراح

كان عياض بن غنم أحدَ الفرسان الذين رافقوا أبا عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - حينما سار بجيشه لفتح دمشق ، ثم رافقه أيضا إلى حمص وبعلبك وحماة وشيزرَ واللاذقية ومعرة النعمان .

وكان أهل هذه المدن يسارعون إلى طلب الصلح ، لما يرون من قوة الجيش الإسلامى وشجاعته .

ثم تابع أبو عبيدة مسيرته إلى « قنسرين » وهى مدينة قديمة تقع شرقى حلب وكان على رأس الجيش سيف الله خالد بن الوليد ، فتحصن أهلها منه ، فوقف خالدُ - رضى الله عنه - ساخرا منهم ، وقال لهم : لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم ، أو لأنزلكم إلينا ، فطلبوا الصلح والأمان ، وخرجوا من ولائهم للروم ، وعند ذلك خاف هرقل ملك الروم على نفسه ، فولى نحو القسطنطينية ، ولكن عياض بن غنم أبى إلا أن يتبعه ويطارده فى أرضه ، فكان بذلك أول قائد مسلم يشق الطريق إلى بلاد الروم .

ثم سار خالد بن الوليد إلى حلب يريد فتحها ، وهى المدينة التاريخية المكتظة بالسكان ، الغنية بالموارد الاقتصادية ، فتحصن أهل المدينة ، ولم يخرج منهم أحد، ورفضوا أن يستسلموا للجيش الإسلامى ، فلما سمع بذلك أبو عبيدة أقبل إلى حلب ، وكان عياض بن غنم على رأس الجيش ، فحاصرهم حصاراً شديداً ، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان ، على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم ، فصالحهم عياض بن غنم ، وقبل بذلك الصلح أبو عبيدة ، وكتب لهم أمانا ، على أن يتركوا مكانا لبناء مسجد .

أنطاكية ومنبج

ثم انطلق أبو عبيدة من حلب قاصداً أنطاكية ، وهى مدينة تبعد عن حلب نحو مئة كيلو متر من الجهة الغربية منها ، وكان بها عدد من الكنائس الموشاة بالذهب والفضة والزجاج الملون ، وكان قد تحصن فيها عدد كبير من الأعداء الفارين من قنسرين وغيرها .

فلما اقترب منها الجيش الإسلامى خرج إليهم جيشها لملاقاته وقتاله ، فلم يلبثوا أن دب فيهم الذعر ، فتفرقت جموعهم ، وتشتتوا هاربين إلى أنطاكية .

فما كان من الجيش الإسلامى إلا أن حاصرهم من كل جانب ، وسد عليهم منافذ الهرب ، فخرجوا يطلبون الصلح ، على الجلاء أو الجزية ، فقبل منهم أبو عبيدة ذلك ، فجلا بعضهم عن أنطاكية ، وأقام بعضهم فيها ، فى أمان واستقرار لأن الجيش الإسلامى لم يكن يسعى إلى الفتك والظلم والإبادة .

إلا أن هؤلاء المقيمين فى أنطاكية ركبهم الغرور ، فنقضوا العهد ، وخرجوا عن الطاعة ، فما كان من أبى عبيدة إلا أن أرسل إليهم عياض بن غنم ، ليكسر شوكتهم ، ويقتلع غرورهم ، ويعلمهم كيف يكون احترام العهود والمواثيق ، ففتح المدينة بجيشه الجرار وأخضع أهلها ، حتى أذعنوا ، واستسلموا للصلح من جديد .

ولما رأى أبو عبيدة من ابن عمه عياض بن غنم هذه البطولة ، وهذا الثبات على نشر دعوة الحق ، وإعلاء كلمة الله ، جعله على رأس جيشه الذى سار به إلى منبجَ وما جاورها من البلاد ، وهى بلدة قديمة كان قد بناها كسرى لما تغلب على الشام ، ذات خيرات واسعة ، وأزاق كثيرة ، وحولها سور محكم مبنى بالحجارة الصلبة ، وفيها آبار منتشرة عذبة المياه ، لاتزال إلى الآن قائمة تابعة لمحافظة حلب .

غير أن عياضًا لم يلق من أهلها مقاومة تذكر ، فقبل منهم الصلح ، ومنحهم الأمان ، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بكل تحرك يقوم به الروم لمحاربة المسلمين .

الجزيرة

المرادُ بالجزيرة : تلك الأرضُ الواسعة الواقعة فى الشمال الشرقى من سورية ، وقد سميت بالجزيرة لأنها تقع بين نهرى دجلة والفرات ، الذين يلتقيان قرب البصرة ، ويصبان فى البحر . ومن أهم مدنها : حران ، والرها ، والرقة ، ورأس عين ، ونصيبين ، وسنجار ، وماردين ، والموصل وغيرها .

وكانت القبائل العربية : مضرُ وربيعة وبكر ... موزعة فى تلك البقاع ، ولكنها لا تملك من أمرها شيئا ، إذ كان الحكم فى يد ملوك الروم ، يتصرفون كيفما يشاؤون .

وانت أنباء الفتوحات التى أحرزها أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعياض بن غنم فى بلاد الشام تصل أسماعهم فيتخوفون أن تقوم إلى جوارهم قوة تتهددهم وتزعزع مُلكهم وتنتزع السلطة من أيديهم .

ففى سنة سبع عشرة من الهجرة اجتمع أهل الجزيرة بملك الروم ، وأيدوه على قتال المسلمين فى حمص ، والتصدى لهم قبل أن يستفحل أمرهم ، ووعدوه أن يقدموا له كل عون ومساعدة ، وأظهروا له أن أمر قتال المسلمين سهلٌ يسير ، وأن النصر سيكون حليفهم فى وقت قصير .

فحشد ملك الروم جموعه بكامل عدتهم وأسلحتهم وتوجه بهم نحو حمصَ ، وكلهم أمل فى أن المسلمين سوف يندحرون عند أول لقاء .

فما أن سمع أبو عبيدة بهذا النبأ حتى استدعى خالد بن الوليد من قنسرين ، وجمع قواده الآخرين ، ووقف يستشيرهم ، هل يواجهون الروم ؟ أم يتحصنون فى حصن ريثما يصلهم المدد ؟ فأشار خالد بالمواجهة الفورية ، وأشار سائر القواد أن يتحصنوا فى حمص ، وأن يبعثوا إلى عمر بن الخطاب فى المدينة ليرى رأيه فى هذا الأمر .

فوجدت هذه الفكرة لدى أبى عبيدة قبولا حسنا ، فكتب إلى عمر يُعلمه

بذلك ، فلما بلغ الخبرُ عمر بن الخطاب ، وهو الخليفة الذى يعرف كيف يتدبر الأمور فى أوقاتها ، بحكمته المعهودة ، وحزمه المعروف ، كتب إلى سعد بن أبى وقاص فى العراق يقول له :

« إن الله قد فتح على المسلمين الشام والعراق ، فابعث جندا من العراق إلى الجزيرة . وأخبره أن أبا عبيدة قد أُحيط به فى حمص ، وأمره أن يرسل بعض القادة إلى حمص ، ليساعدوا أبا عبيدة ، وليؤدبوا عرب الجزيرة الذين ساندوا الروم وعاونوهم على قتال المسلمين . فسارع سعد إلى تلبية هذا الطلب ، فبعث جيشا من الفرسان الميامين ، وجعلهم تحت قيادة عياض بن غنم ، الذى شارك فى فتح مدائن كسرى فى العراق مع سعد بن أبى وقاص ، ثم خرج عمر من المدينة المنورة إلى الشام ، فأتى باب الجابية فى دمشق يريد التوجه إلى حمص لإغاثة أبى عبيدة .

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على المسلمين خبر الجنود الإسلامية وما كان من أمر استعدادهم وحشودهم القادمة من الكوفة وقفوا مذعورين وفروا من أمام هذا الجيش الجرار ، فتفرقوا .

ولكن أبا عبيدة وجدها فرصة مواتية لتوسيع رقعة الفتح الإسلامى فاستدعى إليه عياض بن غنم وطلب منه أن يُعد العُدة لغزو الجزيرة .

فهب عياض إلى الجزيرة ، وهو الفارس الشجاع ، فبلغ مدينة الرقة وهى مدينة تقع على شاطئ الفرات ، وإذا بالقبائل المحيطة بها تتفرق أمامه ، وتولى مندحرة هاربة ، وتخلف وراءها الغنائم الكثيرة .

فدخل عياض مدينة الرقة ، ووضع على أبوابها حرسا من عسكره ، ثم رجع فبث السرايا حولها ، فجعل جنوده يأتونه بالأسرى من القرى المجاورة ، والمواد الغذائية المتنوعة .

فلما مضت ستة أيام على ذلك الحصار قال أهل المدينة لبعضهم : أنتم بين العراق والشام ، وقد استولى عليها المسلمون فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء !

فأرسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الصلح والأمان لأهل المدينة وذراريتهم وأموالهم ومدينتهم فقال عياض : الأرض ، لنا وقد وطئناها وملكناها .

ثم أقرها فى أيديهم على أن يدفعوا الخراج والجزية وكتب لهم عهدًا على ذلك .

ثم توجه عياض بجيشه إلى « حران » ليفتحها ، وهى مدينة مشهورة ذات تاريخ عريق ، وكان لها سور حجرى يحيط بها من كل جانب ، فلما نزل فيها خرج إليه أشراف أهلها فقالوا : ليس بنا امتناع عليكم ، ولكننا نسألكم أن تمضوا إلى « الرها » فتنظروا فى أمرها فمهما فعل أهلها فعلنا مثلهم .

فأجابهم عياض إلى ذلك ، وسار إلى « الرها » وقد التجأ إليها معظم أهل الجزيرة ، فوقف على بابها الشرقى ، ثم دعا أهلها إلى الإسلام فأبوا ذلك ، فلم يُلزمهم عياض بالدخول فى الإسلام ، ولكنه دعاهم إلى أن يكونوا تحت سلطة المسلمين ، فأجابوا إلى ذلك وأقروا على أن يكون لهم شروط يشترطونها ، فسمح لهم عياض بأن يعرضوا شروطهم ، فقالوا :

إنا نشترط الحفاظ على كنائسنا وصليبنا ، وما كان لكنائسنا من غلة ، على أن نؤدى لكم ما علينا من خراج .

فقبل عياض منهم ذلك .

عياض بن غنم أميرًا علي الشام

فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة ، أصيب أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ بالطاعون الذى نزل بأهل دمشق ، وعرف بطاعون عمواس ، وكان عدد جنده ستة وثلاثين ألفاً ، فتفشى فيهم الطاعون ، فلم يبق منهم سوى ستة آلاف .. ولم يلبث أبو عبيدة أن فارق دنياه ، بعد أن شهد مع النبى ﷺ بدرًا وأحدًا ، وتولى إمرة الشام ، فكان له فيها المواقف المشهودة والبطولات ، المشهورة إذ ضرب المثل الأعلى فى قيادته للمسلمين فى الفتوحات الشامية .

ولما توفى رحمه الله استخلف ابن عمه عياض بن غنم على إمارة الشام ، فأقره الخليفة عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - على هذه الإمارة وقال :

لا أغيّر أميراً أمره أبو عبيدة .

فتح قرقيسياء

غير أن أعباء الإمارة وتبعاتها لم تشغل عياض عن مواصلة الفتح لإعلاء راية الإسلام .

ففى سنة تسع عشرة وجه حبيب بن مسلمة إلى قرقيسياء وهى مدينة تقع عند مصب الخابور على الفرات ، فلم يجد حبيب كبير عناء فى فتحها ، لأن أهلها لما سمعوا بسقوط الرقة وحران والرها وغيرها من المدن لم يجدوا بدًا من طلب الصلح والإذعان للأمر الواقع ، والرضى بالشروط التى وافق عليها غيرهم .

وهكذا تحقق حلم عياض - رضى الله عنه - بفتح الجزيرة ، وأصبح اسمه مرتبطا بكل مدينة من مدنها التى أكرمها الله سبحانه وتعالى بالإسلام ، فارتفعت فيها أصوات المؤذنين تدعوا إلى التوحيد ، والعبودية لمن بيده ملكوت السموات والأرض .

وفاته

لقد كان عياض واحدًا من القادة المجاهدين الأبرار الذين وهبوا حياتهم فى سبيل مبادئهم السامية ، ومثلهم النبيلة ، فلم تعرف أيامه طعم الراحة ولذة الاستقرار ، إذ كانت روحه المتوثبة تطمع أن تنال رضى الخالق الرحمن ، والخلود فى رحاب الجنان ، فظل يواصل الجهاد يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، إلى أن توفاه الله عز وجل فى بلاد الشام سنة عشرين من الهجرة بعد أن بلغ من العمر ستون عاما .

الفهـــرس



هذا الكتاب

يحدثنا التاريخ عن معارك خاضها رجالنا فسطروا بحروف من نور قصص البطولة ورفعوا ألوية النصر عالية خفاقه فى كل مكان .

ويطيب لنا يا أبنائى أن نقرأ فى سجل المجد والفخار قصص البطولات لتكون لكم هُدىً ونوراً تستضيئون به فى حياتكم .

إن كل معركة من تلك المعارك التى خاضها الأبطال ذات سمة خاصة ، وتكتيك فريد يدل على ذكاء المحارب العربى ويؤكد على بطولته وحبه الشديد للنصر أو الاستشهاد ...

إنه يقدم كل رخيص وغال من أجل أن تظل رايات الإسلام خفاقة ، وأعلام النصر مرفرفة ...

